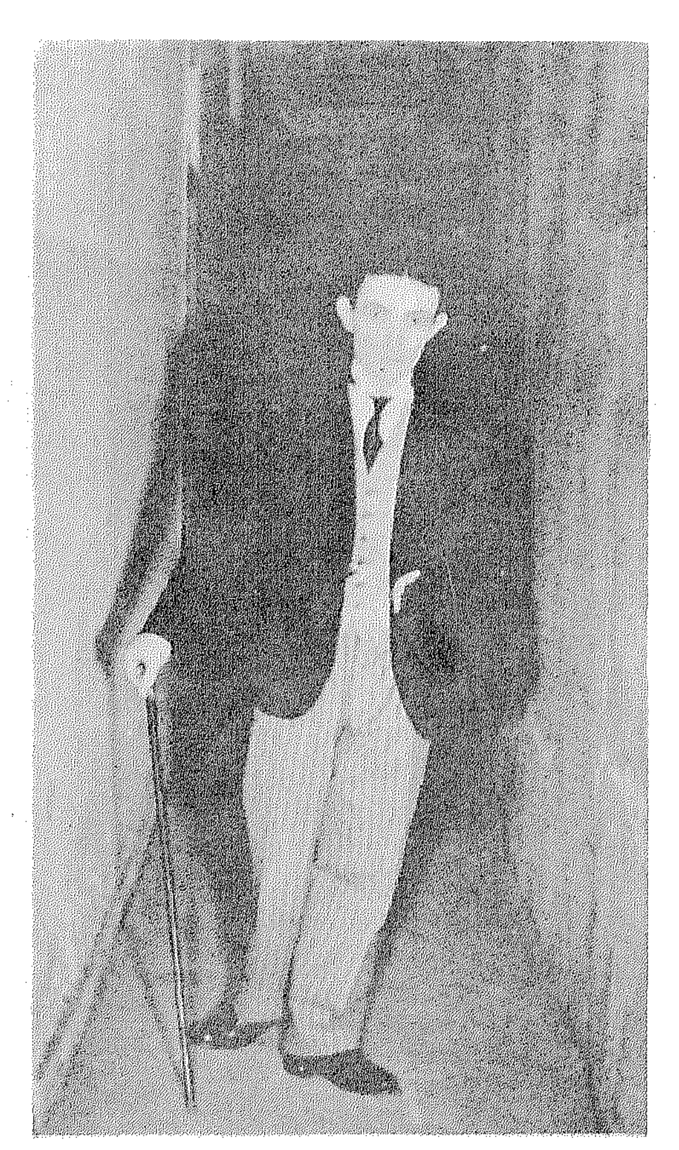


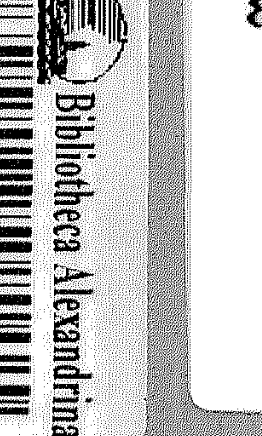
فرانز كافكا

في مستوطنة العقاب

ترجمة: كامل يوسف حسين



سلسلة كتاب شرقيات للجميع (٢٨)



في مستوطنة العقاب

العنوان الأصلي

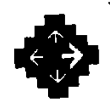
In der Straffkolonie

في مستوطنة العقاب

فرانز كافكا

ترجمة: كامل يوسف حسين

الطبعة الأولى ١٩٩٦



دار شرقيات للنشر والتوزيع

٥ش محمد صدقي، هدى شعراوي

رقم بريدي ١١١١١

باب اللوق، القاهرة

ت: ٣٩٠٢٩١٣ س.ت: ٢٦٩١٩٨

غلاف وإخراج: ذات حسين

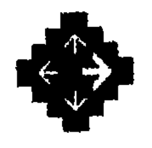
رقم الإيداع: ١٩٩٦/٨٢١٨

الترقيم الدولي: ISBN 977-283-000-0

في مستوطنة العقاب

فرانز كافكا

ترجمة: كامل يوسف حسين



مقدمة المترجم

يضم الكتاب الماثل بين يدي القارئ رواية فرانز كافكا الشهيرة «في مستوطنة العقاب» وقصته القصيرة المثيرة للجدل «بنات آوى وعرب».

وتنبع أهمية هذا الكتاب، على وجه الدقة، من أنه يضم بين دفتيه هذين العملين معاً ؛ وبالتالي من أنه يقدم للقارئ العربي النصين اللذين يشكلان المحور الحقيقي للمساجلات القائمة بين النقاد العرب، حول تقويم إبداع كافكا الأدبي، والتي بلغ احترامها حداً، لم يجعل الكاتبة العربية من العراق بديعة أمين تتردد في أن تتخذ من السؤال التالي عنواناً لكتاب لها حول هذا الموضوع: «هل ينبغي إحراق كافكا؟»

وليس يخفى على القارئ العربي أن النقاد، على امتداد عالمنا العربي، قد انقسموا بصورة رأسية وباترة، لا أمل معها في الحديث عن أرضية مشتركة، حول تقويم مجمل عطاء كافكا الأدبي بعامة وهذين العملين بصفة خاصة، فذهب فريق منهم

إلى القول بأن كافكا، باعتباره كاتباً يهودياً، لا يغيب تأثره بالتقاليد الكتابية الحسيدية وبالمسرح اليديشي عن العيان، يذهب في غمار كتاباته الملتبسة إلى التلميح لتعاطفه مع الفكر الصهيوني، وأن دهاقنة هذا الفكر لم يترددوا في تبنيه، وفي القول بأن الرافد الكافكاوي ينتمي إلى النهر العريض لمسيرتهم الفكرية.

وبالمقابل، ذهب الفريق الآخر من النقاد العرب إلى القول بنقيض هذا، علىٰ وجه الدقة، فشددوا على أن كافكا (١٨٨٣-١٩٢٤) ليس فقط كاتباً لا يمكن تطويع فكره للانضواء تحت راية الصهيونية وفكرها التلفيقي، وإنما هو كذلك عد صريح للصهيونية ولصميم النسيج المهترئ من المقولات، الذي انطلقت منه.

والفريقان معاً يرجعان إلى النصين المدرجين في هذا الكتاب، لاستمداد مبررات وجهات نظر كل منهما.

ولما كان هذان النصان ليسا -فيما نعلم- متاحين للقارئ العربي، فإن الاستشهادات والاستشهادات المضادة بكل منهما تظل أمراً لا يستطيع القارئ العربي الحكم عليه، الأمر الذي يبدو معه هذا القارئ وكأنه قاضٍ مستدعى للحكم في قضية لم يوضع ملفها بين يديه.

ونحن، ببساطة، من خلال تقديم هذا الكتاب للقارئ

العربي، إنما نضع ملف القضية بين يديه، فضلاً عن أننا نتيح له تذوق نصين، لا مجال لإنكار أنهما ينتميان إلى أرفع تقاليد الأدب العالمي، وأكثرها عبقرية وإبداعاً.

وقبل أن ندلي بدلونا في هذه القضية الخلافية، نعتقد أنه لابد لنا من أن نطرح عدداً من النقاط، يغلب على ظننا أنها قد تكون مما لم يسبق للقارئ العربي الإلمام به.

١- لكي نحكم على كاتب ما، دع جانباً أن نعمل إبداعه في مواجهة خصم نخوض معه معركة مصيرية، لابد لنا من تعرف نتاجه بدرجة من اليقينية والضبط، تتيح لنا امتلاك ناصية رؤية نقدية، قادرة على تحويل هذا الإبداع إلى سلاح حقيقي، في مواجهة الخصم، فإذا ما أردنا تطبيق هذا على إبداع كافكا، تبين لنا أن ما ترجم من أعماله إلى اللغة العربية يمكن أن يضمه مجلد متواضع الحجم، بينما الطبعة الجديدة المنقحة لأعماله الكاملة باللغة الألمانية تقع في ١٣ مجلداً[١].

٢- كافكا كاتب تختلف المعتقدات الأساسية الشائعة عنه، تمام الاختلاف، عن الواقع الحقيقي، فالانطباع العام لدى القارئ العربي عنه أنه كاتب تميل أعماله إلى التحليق في أجواء

(١) راجع المقدمة التي صدرنا بها ترجمتنا لرواية كافكا الموسومة «تحريات كلب» الصادرة عن دار الوسام البيروتية في ١٩٨٦م (هـ . م.)

سوداوية، إن لم نقل كابوسية، ويستحيل شخوصه إلى كائنات خارجة عن الإهاب الإنساني على نحو محير ؛ من هنا قد يدهش القارئ العربي إذا علم أن التشيك، وكافكا كاتب تشيكي بحسب الجنسية، يعتبرونه كاتباً فكاهياً، بينما يعتبره صديقه وناشر أعماله ماكس برود ومترجمه ادوين موير روائياً مسيحياً، ولا يتردد جونتر أندريز، مؤلف كتاب «كافكا» الذي يعد من أقوى الدراسات عنه، في القول بأنه كاتب متشكك يطال تشككه نزعة التشكك ذاتها عنده، ولا يتردد الشيوعيون والفرويديون وغيرهم في القول بانتمائه إليهم، ذلك أن عبقرية الرجل كانت أكثر زخماً من أن تقع تحت طائلة تصنيف بعينه، فهي كالشلال الجارف الذي يتحدى محاولات الاحتجاز.

٣- ينتمي كافكا إلى الأقلية اليهودية المتحدثة بالألمانية في تشكوسلوفاكيا (١٨٨٣ -١٩٢٤)، فهو إذن عضو في أقلية داخل أقلية، لكن رحلة اغترابه لا تقف عند هذا الحد، فواقعه الطبيعي، المتمثل في انتمائه إلى عائلة تجارية، يمثل المال قيمة عليا في حياتها ووجودها، يتناقض مع مواقفه المعلنة في رواياته، والمتجلية في صدامه مع أبيه، الذي كرسه في خطابه الشهير إليه، ولعله ليس من قبيل الصدفة أنه أمضى الشطر الأعظم من حياته في العمل بمؤسسة التأمين على العمال في هنجاريا، وظل بها إلى أن أرغمته إصابته بالسل على الاستقالة في عام ١٩٢٢.

٤- عايش كافكا أخطر تطورات صدر القرن العشرين،

وخاصة اندراج الرأسمالية قدماً في مسارها نحو الامبريالية، وظهور الثورات التحررية الكبرى، ومن الثابت أنه كان على اطلاع على ما يدور على الساحة العالمية والعربية، حيث كانت فلسطين طريدة الامبريالية وربيبتها الصهيونية، ويشير كثير من النقاد إلى أن هذه النقطة تعتبر من أخطر النقاط في حياته وفي منهجه الأدبي ونتاجه الفكري.

٥ -خلافا لما يحاول دهاقنة الصهاينة الترويج له، فلم يثبت تاريخياً انتماء كافكا إلى تيارات سياسية محددة، ومع ذلك لم يتردد في الإعراب أكثر من مرة عن تعاطفه مع الاشتراكية، ففي رده على أحد أصدقائه، والذي سأله عن التجربة الاشتراكية في الاتّحاد السوفياتي، قال كافكا: «إن الناس في روسيا يحاولون إقامة عالم تسوده العدالة الكاملة».

٦- إذا كان أدب كافكا قد سطر معظمه في صدر القرن الحالي، فإن العبقرية الفذة الكامنة وراء هذا الأدب قد شحنته بالجوهر الرؤيوي، الذي يجعله الآن، وعند المنعطف الرابع للقرن العشرين، يمثل زاداً حقيقياً لنا. ويعبر الناقد الشهير جورج لوكاتش خير تعبير عن ذلك، بإشارته إلى أن: «إنجازات كافكا لم تكن أكثر لفتاً للنظر أو أكثر إلحاحاً منها في الوقت الحاضر، الذي يغرم فيه كتاب كثيرون بالتجريب الدقيق، وأثر أعمال كافكا ليس مستمداً من إخلاصه الشديد فحسب، وهو إخلاص

نادر في عصرنا، وإنما من بساطة العالم الذي ينشئه، وهي البساطة التي تتمشى مع الإخلاص، ذلك هو أشد إنجازات كافكا ابتكاراً» .

الآن من الطبيعي أن تقودنا هذه النقاط إلى التساؤل، الأكثر أهمية، حول موقفنا من القضية الخلافية المثارة، في دوائر النقاد العرب، حول علاقة إبداع كافكا بالفكر الصهيوني، وما إذا كانت علاقة انتماء أو علاقة رفض.

إنني أعتقد جازماً أن كافكا لم يكن فقط رافضاً للفكر الصهيوني، وإنما أعلن عداءه الصريح والقاطع لهذا الفكر أيضاً، وبالتحديد من خلال العملين الماثلين في هذا الكتاب.

ولست أريد أن أفسد على القارئ متعة مطالعة النصين، واتخاذ حكم بنفسه ولنفسه، ولذا فإني أستميحه عذراً، وأرجو أن يوافقني على وجاهة قراري بعدم تقديم دراسة نصية للعملين هنا، فضلاً عن أن مثل هذه الدراسة تعد مما يتجاوز المقومات الموضوعية لمثل هذه المقدمة الماثلة بين يدينا.

من هنا فإني سأسمح لنفسي بإيراد نقاط محدودة، في معرض تبرير اعتقادي بأنه لا موضع، على الإطلاق، لوجود شبهة تواصل بين منجزات كافكا ومقولات الفكر الصهيوني.

أ- في اعتقادي الخاص أن هذه القضية، التي يسهر النقاد

العرب جراها ويختصمون، قد حسمت، على الصعيد العالمي، حقاً إننا لا نرى كثيراً من الدراسات تقول صراحة بعداء كافكا للصهيونية وذلك لأسباب تعود إلى ضراوة الحضور الصهيوني، وبالمقابل نرى انكساراً في المحاولات الصهيونية للتمسح بفكر كافكا، بعد ثبوت رفضه للمقولات الصهيونية، ونرى في الوقت نفسه أن الدراسات الحديثة تميل إلى إثبات إحجام كافكا عن تأييد الدعوة الصهيونية، التي كانت في صدر القرن تحاول الانتشار كالسرطان في كافة التجمعات اليهودية ؛ ومن هنا فإن من الطبيعي أن نقرأ لمارتن سيمورسميث في الطبعة الجديدة المنقحة الصادرة في ١٩٨٥ من «دليل ماكميلان للأدب العالمي» ما يلي: «كان كافكا باعتباره يهودياً يتحدث الألمانية في براغ مغترباً بصورة مزدوجة، لكنه شعر كذلك بالاغتراب عن بني جلدته بسبب افتقاره للتعاطف الغريزي مع الصهيونية».

ب- إننا جميعا نعلم بالصدام بين الفكر الاشتراكي العلمي والصهيونية، والآن كيف يمكن أن نتصور أن ممثلي هذا الفكر يشيدون بكاتب صهيوني.. إن وجاهة هذا التساؤل ومشروعيته ستبدوان لنا بوضوح إذا تذكرنا أنه في عام ١٩٦٣ عقد في قصر «ليسبليس» بتشيكوسلوفاكيا مؤتمر لدراسة كافة أعماله ومكانتها في البلاد الاشتراكية، دعت إليه أكاديمية العلوم التشيكية، فخرج الدارسون، من هذا التجمع الثقافي الواسع، بالنتيجة التالية: «إن أدب كافكا كان أدباً طليعياً، وكان هو

طليعة للحرية على طريقته الضاحكة الباكية».

جـ- إنني أعتقد أن اتهام كافكا بوجود رابطة بين إبداعه وبين الفكر الصهيوني من جانب النقاد العرب، يرجع إلى عناصر يفوق كل منها الآخر في سوء التقدير، فهناك الميل الغريزي، الذي يتعين علينا أن نقاومه، إلى الربط بين ما هو يهودي وما هو صهيوني، وكأننا بذلك نضخم معسكر الأعداء، ونصادر بجرة قلم الجهود النبيلة لقطاع من اليهود ذوي الفكر الحر المستنير الذين يرفضون الصهيونية، ويرون فيها، بحسب عنوان كتاب موشى منوحين الشهير، الكارثة التي ستؤدي إلى تحلل اليهودية في زماننا، وهناك التفسير العشوائي لرموز عالم كافكا، وهناك الوقوع في شرك ما ينصبه العدو ويحاول الترويج له، فضلاً عن العديد من العناصر الأخرى لسنا هنا بصدد تفصيلها.

د- سيلاحظ القارئ، إذا أمعن التأمل والتدبر في العملين اللذين يضمهما هذا الكتاب، أنه على الرغم من الفروق الحتمية التي يفرضها تباين الإطار الفني بين الرواية والقصة القصيرة، فإن العملين تجمعهما روابط في غاية القوة، فهما يدوران حول الموضوع نفسه، ويتحركان من خلال شخوص متشابهة، وينتهيان إلى مصب واحد تقريباً، يفضح العلاقة العضوية بين الصهيونية والإمبريالية ومدى فساد العديد من المقولات الصهيونية.

هـ- وأخيراً نطرح سؤالاً على من قد لا يوافقنا فيما

أوردناه هنا من آراء: هل هناك رفض للصهيونية وإدانة لها أقوى من تشبيهها بآلة مدمرة تقضي على نفسها بحكم فساد مكوناتها الذاتية؟ أليس هذا هو على وجه الدقة ما يقوم به كافكا في الصفحات الماثلة بين يدي القارئ؟

لقد كان كافكا هو الذي قال عن نفسه، في رسالة إلى خطيبته فيليسيا في ١٤ أغسطس ١٩١٣: «ليست لدي اهتمامات أدبية، وإنما أنا مجبول من أدب، إنني لست شيئاً آخر، وليس بوسعي أن أغدو شيئاً آخر».

وكل ما أتمناه أن أكون، عبر هذه الترجمة، قد حققت للقارئ العربي إطلالة على هذا الكاتب المجبول من أدب، تتيح له رؤية أعمق لعالمه، الذي أساء البعض فهم أسراره، وعجز عن الاجتهاد في فهم مغاليقه.

الشارقة في أول مايو ١٩٨١

في مستوطنة العقاب

«إنها آلة رائعة»، قالها الضابط للمستكشف، رمق الآلة التي كانت في النهاية مألوفة له بإعجاب حميم. بدا المستكشف كما لو قد قبل بدافع التأدب فحسب دعوة القائد له لمشاهدة تنفيذ الحكم في جندي حكم عليه بالإعدام، جزاء للتمرد والسلوك المهين إزاء رئيسه، كما لم تبد المستعمرة ذاتها ما يوحي بكبير اهتمام بهذا التنفيذ، على الأقل لم يكن هناك أحد في الوادي الرملي الصغير، وهو خور عميق تحيطه من كافة الجهات صخور جرداء، فضلاً عن الضابط، والمستكشف، والمحكوم– وهو مخلوق بادي البلاهة، فاغر الفم، تكلل الحيرة وجهة وشعره– والجندي الذي كان يمسك بسلسلة ثقيلة تتحكم في سلاسل صغيرة أحكم وثاقها على كاحلي السجين رسغيه ورقبته. كانت السلاسل ذاتها مرتبطة إحداها بالأخرى، عن طريق حلقات وصل. بدا المحكوم على أية حال شديد الشبه بكلب خاضع، بحيث أن المرء قد يعتقد أن بالوسع تركه ينطلق حراً في التلال المحيطة بالمكان.

لم يكترث المستكشف كثيراً للآلة، راح يسير جيئة وذهاباً خلف السجين، بلامبالاة واضحة، فيما كان الضابط يجري عمليات التنسيق الأخيرة، زاحفاً تارة تحت هيكل الآلة، الذي كان مغروساً بعمق في الأرض، متسلقاً تارة أخرى سلماً ليتفقد أجزاءها العليا. تلك كانت مهاماً يتعين أن تترك لميكانيكي، لكن الضابط راح يؤديها بحماس عظيم، إما لأنه كان معجباً مخلصاً بالآلة، وإما لأن العمل لا يمكن أن يعهد به لآخر لأسباب أخرى. «جاهزة الآن» قالها أخيراً، وهو يهبط درجات السلم. بدا مضطرباً بصورة غير مألوفة، راح يتنفس بفم مفتوح عن آخره، وقد وضع منديلين من مناديل السيدات تحت ياقة ردائه الرسمي. قال المستكشف بدلاً من طرح استفسار عن الآلة كما كان الضابط يتوقع: «هذه الأردية الرسمية أثقل من أن ترتدى في المناطق الاستوائية بالتأكيد». قال الضابط، وهو يغسل يديه اللتين لطخهما الشحم والزيت في دلو من الماء معد لذلك: «بالطبع، لكنها تعني الوطن بالنسبة لنا، ونحن لا نرغب في أن ننسى الوطن، الآن ألق نظرة فحسب على هذه الآله» قالها فجأة، مجففاً يديه في منشفه، ومشيراً إلى الآله، استطرد: «حتى الآن تعين أن يضبط كل شيء بطريقة يدوية، لكن منذ هذه اللحظة ستقوم بكل شيء بنفسها». أومأ المستكشف موافقاً. تبع الضابط، قال هذا الأخير، في غمار حرصه على تأمين نفسه ضد كافة الظروف الطارئة: «بالطبع فإن الأمور تختل أحياناً، آمل ألا يختل شيء اليوم، لكن علينا أن نحتاط لكافة الاحتمالات، فالآلة

ينبغي أن تواصل العمل طوال اثنتي عشرة ساعة، ولكن إذا ما اختل شيء فسيكون أمراً هيناً فحسب، يمكن إصلاحه في الحال».

تساءل أخيراً: «ألا تتناول مقعداً؟». جذب مقعداً من الخيزران من كومة مقاعد مماثلة، قدمه للمستكشف، الذي لم يستطع أن يرفضه. كان جالساً الآن عند حافة حفرة، رمقها لبرهة بنظرة عابرة، لم تكن عميقة للغاية، عند أحد جوانبها كان ناتج الحفر مكوماً، في شكل سور واقٍ، وعلى الجانب المقابل سمقت الآلة.

قال الضابط: «لا أدري ما إذا كان القائد قد شرح لك هذه الآلة بالفعل». لوح المستكشف بإحدى يديه، على نحو غامض. ما كان الضابط لينشد ما هو أفضل من ذلك؛ حيث غدا بوسعه أن يشرح الآلة الآن بنفسه. قال ممسكاً بذراع للتشغيل، مستنداً عليه: «لقد اخترع قائدنا السابق هذه الآلة، ساعدته في التجارب الأولى ذاتها، وشاركت في العمل كله حتى اكتماله، لكنه هو وحده الذي ينبغي أن يعزى إليه الاختراع، هل سبق لك أبداً أن سمعت عن قائدنا السابق؟ كلا؟ طيب، ليس من المبالغة في القول أن أخبرك بأن تنظيم مستوطنة العقاب بأسره هو من عمله، ونحن الذين كنا أصدقاءه كنا نعرف، حتى قبل أن يموت، أن تنظيم المستعمرة بالغ الكمال، بحيث أن من خلفه، حتى وإن كان رأسه يحفل بألف

مشروع جديد، سيجد أن من المستحيل تغيير أي شيء على الأقل لسنوات عديدة مقبلة، وقد صحت نبوءتنا ؛ حيث اضطر القائد الجديد إلى الإقرار بصحة هذه النبؤة، مؤسف أنك لم تقابل القائد القديم، ولكن....» قاطع الضابط حديثه، قال: «إنني أتحدث بصورة مشتتة، ها هي آلته تنتصب أمامنا، وهي تتألف، كما ترى، من ثلاثة أجزاء، بمرور الزمن حظي كل جزء من هذه الأجزاء بنوع من أسماء التدليل الشعبية، فالجزء الأسفل يسمى «المرقد» ، والجزء العلوي يسمى «المصمم» ، وهذا الجزء هنا في المنتصف الذي يتحرك إلى أعلى وإلى أسفل يسمى «المسحاة» . تساءل المستكشف «المسحاة؟» . لم يكن يصغي بانتباه بالغ، كان توهج الشمس في الوادي، المجرد من الظلال تماماً، أقوى من أن يحتمل، كان من العسير على المرء أن يستجمع أفكاره، تزايد إعجابه بالضابط، الذي كان على الرغم من سترة زيّه الرسمي المحكمة الالتصاق بجسده، والمزينة بإسراف بجدائل الزينة، والمثقلة بالنسيج المقصب على الكتفين، يواصل التركيز في موضوعه بحماس بالغ، وإلى جوار الحديث لا يزال يحكم تثبيت برغي هنا وآخر هناك بمفتاح للربط. أما فيما يتعلق بالجندي فقد بدا في الحالة ذاتها التي كان المستكشف عليها، كان قد لف سلسلة السجين حول رسغيه كليهما، واستند إلى بندقيته، تاركاً رأسه تتدلى، دونما اكتراث لشيء. لم يدهش ذلك المستكشف، فقد كان الضابط يتحدث الفرنسية، ومن المؤكد أنه

لا الجندي ولا السجين يبذل جهداً في متابعة إيضاحات الضابط، راح يواصل، بضرب من الإصرار الناعس، التحديق حيثما أشار إصبع للضابط، كان ينظر فيما حوله، شأن الضابط، لدى الانقطاع الذي يحدثه سؤال يوجهه المستكشف.

قال الضابط: «أجل المسحاة»، اسم طيب لهذا الجزء، إن الإبر مثبتة فيه مثل أسنان «المسحاة»، والشيء كله يعمل كالمسحاة، وذلك على الرغم من أن عمله يقتصر على موضع واحد، ويخطط بمزيد من المهارة الفنية الفائقة، وعلى أية حال فسرعان ما ستفهمه، فالمحكوم عليه يوضع هنا على «المرقد»– سأصف لك الآلة أولاً قبل أن أدعها تتحرك– عندئذ يمكنك أن تتبع الخطوات على نحو أفضل، أضف إلى ذلك أن إحدى العجلات المسننة الموجودة في «المصمم» قد بليت، على نحو سيئ، وهي تقرقع كثيراً حين تعمل، بحيث لا يمكنك سماع صوتك وأنت تتحدث، من سوء الحظ أنه من العسير الحصول على قطع غيار هنا. طيب، هنا «المرقد» كما أخبرتك، إنه مغطى تماماً بطبقة من الصوف والقطن، وسنكشف السبب في ذلك فيما بعد، يرقد المحكوم فوق هذا المزيج من القطن والصوف، ووجهه إلى أسفل، عارياً تماماً بالطبع، هنا أطواق لليدين، هنا للقدمين، هنا للعنق لتقييده بإحكام، هنا عند رأس «المرقد» حيث يحني الرجل أول الأمر، كما قلت لك، وجهه. يوجد هذا الكعام من اللباد الذي يمكن أن يضبط بسهولة بحيث ينزلق

مباشرة إلى فمه، وقد قصد به الحيلولة بينه وبين الصراخ وعصر لسانه. إن الرجل بالطبع يرغم على تلقي الكعام في فمه، وإلا فإن الطوق يمكن أن يكسر عنقه.

تساءل المستكشف منحنياً إلى الأمام: «أهذا قطن وصوف؟». أجاب الضابط بابتسامة: نعم بالتأكيد، تحسسه بنفسك!» أمسك بيد المستكشف، أرشدها لتجس سطح المرقد، قال «إنه مزيج معد خصيصاً من القطن والصوف، وذلك هو السبب في أنه يبدو مختلفاً، سأخبرك حالاً بالغرض منه» كان المستكشف يستشعر بالفعل اهتماماً بالآلة يهبط عليه، راح يحمي عينيه من الشمس بإحدى يديه، ويحدق في الهيكل، كان شيئاً ضخماً، كان «للمرقد» «والمصمم» الحجم ذاته، ولاحا مثل قفصين خشبيين معتمين، كان «المصمم» يتدلى على ارتفاع مترين فوق «المرقد» كان كل منهما مثبتاً عند الأركان بأربعة قضبان من النحاس الأصفر، كانت توشك أن تتوهج شعاعاً في ضوء الشمس، وتحت القفصين كانت «المسحاة» تتحرك حركة مكوكية على شريط من الصلب.

لم يكن الضابط قد لاحظ لامبالاة المستكشف السابقة، لكنه كان الآن يدرك اهتمامه المفاجئ، من ثم فقد توقف عن الشرح ليترك مجالاً زمنياً للمراقبة الهادئة. قلد المحكوم المستكشف، وبما أنه لم يكن بوسعه أن يستخدم يده ليحمي عينيه فقد راح يحدق عالياً دونما حماية. قال المستكشف

متراجعاً في مقعده ومصالباً قدميه: «طيب، يرقد الرجل أرضا».

قال الضابط، رافعاً غطاء رأسه العسكري إلى الخلف قليلاً، ممرراً إحدى يديه على وجهه المتقد «نعم، الآن أصغ! إن لكل من «المرقد» و «المصمم» بطارية كهربائية، «فالمرقد» يحتاج لنفسه واحدة و «المصمم» يحتاج واحدة من أجل «المسحاة» وبمجرد أن يرقد الرجل عارياً يتحرك «المرقد»، يرتعش في دقة، في ذبذبات سريعة للغاية تسري من جانب إلى آخر ومن أعلى إلى أسفل في الوقت ذاته، وربما تكون قد شاهدت آلة مماثلة في أحد المستشفيات، ولكن في حالة «مرقدنا» فإن الحركات جميعاً محسوبة تماماً بدقة، وكما ترى فإنها ينبغي أن تتفق بدقة بالغة مع حركات «المسحاة»، و «المسحاة» هي الجهاز الذي يقوم بالتنفيذ الفعلي للحكم».

تساءل المستكشف: «وكيف ينفذ الحكم؟». قال الضابط في دهشة وهو يعض شفتيه: «ألا تعلم ذلك أيضا؟ سامحني إن بدت أيضاً حالتي غير متماسكة، إنني أستمحيك عذراً، فكما -لعلك تدرك- اعتاد القائد دائماً أن يقوم بالإيضاح، لكن القائد الجديد يتهرب من هذا الواجب، ولكن ألا يخبر زائراً مهماً مثلك... «حاول المستكشف التنصل من هذا الشرف، ملوحاً بيديه، غير أن الضابط استطرد مصراً: «ولكن ألا يخبر زائراً مهماً مثلك بنوعية الحكم الذي نصدره». كان على وشك استخدام

تعبير فظ، لكنه كبح جماع نفسه، واكتفى بالقول: «لم أبلغ بذلك، لم يكن هذا خطئي على أية حال، من المؤكد أنني خير من يشرح هذا الإجراء الذي نتبعه حيث أن لدي هنا» –وربت على الجيب الموجود بأعلى– «الرسوم الهامة التي وضعها قائدنا السابق».

تساءل المستكشف: «رسومات القائد الخاصة، هل قام بكل شيء بنفسه إذن؟ أكان جندياً، قاضياً، ميكانيكياً، كميائياً ورساماً؟».

قال الضابط، مشيراً برأسه علامة الموافقة، وفي عينيه نظرة لامعة، تحلق نحو البعيد: «كان كذلك حقاً»، ثم تفقد يديه بنظرة منتقدة، لم تظهرا له نظيفتين بما فيه الكفاية بحيث يلمس بهما الرسوم ؛ لذا مضى إلى الدلو، وغسلهما مرة أخرى، ثم جذب حافظة جلدية صغيرة، وقال: «إن حكمنا لا يبدو قاسياً، أيا كانت الوصية التي خالفها المحكوم من الوصايا العشر فإنها تكتب «بالمسحاة» على جسده، هذا المحكوم على سبيل المثال» –أشار الضابط إلى الرجل– ««سيكتب على جسده... وقِّر رؤساءك!»».

ألقى المستكشف بنظرة على الرجل. كان قد وقف محني الرأس، فيما الضابط يشير إليه. كان فيما يبدو يصغي بملء أذنيه، في محاولة لفهم ما يقال، غير أن حركة شفتيه الغليظتين

المطبقتين بإحكام أفصحت عن عجزه عن فهم كلمة واحدة، أسئلة عديدة كانت تؤرق المستكشف، لكنه لدى مرأى المحكوم تساءل فحسب: «هل يعرف الحكم الصادر ضده؟»، «لا» قالها الضابط مرة أخرى، ملتزماً الصمت للحظة، كما لو كان يتيح الفرصة للمستكشف ليسهب القول في معرض التساؤل، ثم قال: «لن يكون هناك معنى لإبلاغه بالحكم، فلسوف يعرفه بدنياً حين يطبق عليه» تعمد المستكشف ألا يرد، لكنه شعر بتحديق السجين ينتقل إليه، بدا كما لو كان يسائله عما إذا كان يوافق على مثل هذه الإجراءات ؛ لذا فقد انحنى إلى الأمام مرة أخرى، بعد أن كان قد تراجع للخلف في مقعده. طرح سؤالاً آخر: «لكن من المؤكد أنه يعلم أن حكماً قد صدر ضده؟». «ولا ذلك أيضاً» قالها الضابط مبتسماً للمستكشف كما لو كان يتوقع منه المزيد من الملاحظات المدهشة، قال الضابط مجففاً العرق الذي سال على جبينه: «لا»، «هو إذن لا يستطيع أن يعرف ما إذا كان دفاعه مجدياً؟» مال الضابط مشيحاً بعينيه بعيداً، كما لو كان يحادث نفسه، وموفراً بذلك على المستكشف عار الاستماع إلى أمور جلية بذاتها وهي توضح له، قال المستكشف، وقد نهض من مقعده: «لكن لابد أنه قد أتيحت له فرصة الدفاع عن نفسه.

أدرك الضابط أنه معرض لخطر تأجيل شرحه للآلة لوقت طويل ؛ لذا فقد انطلق صوب المستكشف، أمسك بذراعه، ولوح

بإحدى يديه تجاه المحكوم، الذي كان واقفاً في تصلب بالغ الآن، بعد أن أصبح بصورة جلية محور الانتباه. كان الجندي قد حرك السلسلة كذلك. قال الضابط: «الأمر على هذا النحو: لقد عينت قاضياً في مستوطنة العقاب هذه وذلك على الرغم من حداثة عمري، حيث إنني كنت مساعد القائد السابق في كافة الأمور المتعلقة بالعقاب، وأعرف عن الآلة ما يفوق ما يعرفه أي شخص آخر. كان مبدئي الذي أسترشد به هو هذا: الذنب ينبغي ألا يكون أبداً موضع شك، إن المحاكم الأخرى لا يمكنها أن تتبع هذا المبدأ ؛ لأنها تتألف من آراء عديدة ولها محاكم عليا تعتصر أحكامها، ليس ذلك هو الحال هنا، أو على الأقل لم يكن الحال كذلك في عهد القائد السابق، لقد أظهر الرجل الجديد على نحو مؤكد ميلاً إلى التدخل في أحكامي، لكنني نجحت حتى الآن في رده، ولسوف أواصل نجاحي، بودك أن تشرح لك القضية، إنها بسيطة للغاية، شأن كافة القضايا، لقد تقدم لي ضابط برتبة نقيب بتقرير صباح اليوم مؤداه أن هذا الرجل، الذي عين خادماً له، وكان عليه أن يرقد أمام بابه، قد نام أثناء أدائه لواجبه، وكما -لعلك تدرك- فإن من واجبه أن ينهض مع دقات كل ساعة، ويؤدي التحية أمام النقيب، ليس ذلك بالواجب الثقيل، وهو ضروري للغاية كذلك، حيث إن على الجندي أن يكون حارساً كذلك، إلى جانب كونه خادماً، ويتعين أن يكون يقظاً في أدائه لواجباته. في الليلة الماضية أراد

النقيب أن يرى ما إذا كان يؤدي واجبه، فتح الباب، فيما كانت الساعة ترسل دقتها الثانية، فألفى هذا الرجل متكوماً يغط في النوم، أمسك بسوط للركوب، لطمه على وجهه، وبدلاً من أن يهب واقفاً معتذراً أمسك الرجل بقدمي سيده، هزه، وصاح: «ألق بهذا السوط ولا أكلتك حيا!»، ذلك هو دليل الإدانة، جاء النقيب إليّ قبل ساعة، فدونت إفادته وأرفقت الحكم بها، ثم أمرت بوضع الرجل في الأغلال، كان الأمر كله بسيطاً تماماً. أما إذا كنت قد استدعيت الرجل أولاً ليمثل أمامي، وحققت معه، فإن الأمور كانت ستختلط على نحو مربك، كان حرياً به أن يلقي بالأكاذيب، لدعمها بالمزيد من الأكاذيب وهكذا بلا انتهاء، وكما هو الحال فقد أمسكت به ولن أفلته، أهذا واضح الآن؟ لكننا نهدر الوقت سدى، ينبغي أن يبدأ التنفيذ، ولم أنته بعد من شرح الجهاز لك. ألحف المستكشف في العودة إلى مقعده، مضى صعداً إلى الآلة من جديد، شرع يقول: «إن شكل «المسحاة» كما ترى يتطابق مع شكل الجسم البشري، هنا مسحاة البدن، هنا مساحي الأقدام، أما للرأس فهناك هذا المسار الصغير، أهذا واضح تماما؟» انحنى بود تجاه المستكشف، تواقاً إلى تقديم أكثر الإيضاحات شمولاً.

تأمل المستكشف المسحاة، وقد قطب جبينه، أثارت مثل هذه الصيغة للإجراء القضائي استياءه، كان عليه أن يذكر نفسه بأن تلك في النهاية مستوطنة للعقاب، في مسيس الحاجة إلى

إجراءات استثنائية، وأن النظام العسكري ينبغي أن يطبق حتى أقصاه، رغم ذلك شعر بأن بعض الأمل قد يمكن تعليقه على القائد الجديد، الذي كان قد عقد العزم، فيما يبدو، على إحلال نوع من الإجراءات وإن يكن بصورة تدريجية، ما كان ذهن الضابط الضيق قادراً على فهمه. دفعه تتابع الأفكار ذاك إلى طرح سؤاله التالي: «هل سيشهد القائد تنفيذ الحكم؟». «ليس هذا مؤكداً» قالها الضابط، مجفلاً في مواجهة السؤال المباشر. تكدر التعبير البشوش المرتسم على ملامحه. استطرد:: «ذلك هو على وجه الدقة السبب في أننا لا ينبغي أن نخسر وقتنا، وعلى غير ما أود سيتعين على أن أختصر أيضا إيضاحاتي، ولكن غداً بالطبع حينما تنظف الآلة، فعيبها الوحيد أنها تتسخ بصورة بالغة، أن أستعيد كافة التفاصيل ؛ من هنا فإننا سنوضح في الوقت الراهن النقاط الأساسية فحسب، حينما يضجع الرجل على «المرقد»، ويشرع هذا في التذبذب، تتدلى «المسحاة» حتى جسده، تنظم حركتها تلقائياً، بحيث تمسك الإبر الجلد بالكاد، وحينما يحدث الاتصال فإن الشريط الصلب يتصلب على الفور، متحولاً إلى طوق محكم، ثم يبدأ الأداء، ولئن أطل جاهل بالحقيقة فلن يرى فارقاً بين عقاب وآخر، «فالمسحاة» تقوم بعملها بانضباط صارم، وفيما هي تتذبذب فإن طرفها يخترق جلد الجسم الذي يتذبذب هو ذاته من جراء ذبذبة «المرقد» ولكي يمكن رصد التقدم الفعلي للحكم فإن «المسحاة» مصنوعة

من الزجاج. كان تثبيت الإبر في الزجاج مشكلة فنية، ولكن بعد العديد من التجارب تغلبنا على هذه الصعوبة، وكما -لعلك تدرك- فإن المشكلات لم يكن هناك منها ما يعظم علينا مواجهته، الآن بوسع أي شخص أن ينظر من خلال الزجاج ويراقب عملية الوشم على الجسم وهي تتم. أيضيرك الاقتراب وإلقاء نظرة على الإبر؟».

نهض المستكشف ببطء، تقدم باتجاه الآلة، انحنى فوق «المسحاة» قال الضابط: «هناك كما ترى، نوعان من الإبر نظما في أطر مزدوجة، كانت لكل إبرة طويلة أخرى قصيرة إلى جوارها، تقوم الإبر الطويلة بالوشم، أما الإبر الصغيرة فهي تنفث رذاذاً من الماء لغسل الدم، وابقاء الوشم نظيفاً، ثم يساق الدم والماء معاً هنا عبر مجار صغير إلى هذا المجرى الرئيسي، ثم عبر أنبوبة نفاية إلى الحفرة». راح الضابط يتابع، مشيراً بأصبعه إلى المجرى المحدد الذي يتخذه مسار الماء والدم، ويجعل الصورة تنبض بالحياة بقدر الإمكان. وضع يديه مشتبكتين أسفل مخرج أنبوبة النفاية، كما لو كان سيمسك بما يتدفق منها، حينما فعل ذلك تراجع المسكتشف برأسه تحسس ما وراءه بإحدى يديه ساعيا للعودة إلى مقعده. أفزعه أن يجد أن المحكوم كان بدوره قد لبى دعوة الضابط لفحص «المسحاة» عن كثب وتبعه، كان قد جذب الجندى الذي أثقله النعاس بالسلسلة ووقف منحنياً على الزجاج، كان بوسع المرء أن يرى أن عينيه القلقتين. كانتا تحاولان اختراق

ما كان السيدان ينظران إليه، ولكنه لم يستطع فهم الإيضاح، لم يستطع أن يتبين طبيعة الآلة، كان يحدق بهذه الطريقة حيناً وبأخرى حينا آخر، راح يمرر ناظريه على امتداد الزجاج. أراد المستكشف أن يطرده بعيداً، حيث إن ما يفعله ربما يكون فعلاً جديراً باللوم، لكن الضابط حال بحزم دون المستكشف والتصرف بإحدى يديه، وباليد الأخرى احتفن قبضة من التراب من السور، وألقاها على الجندي، فتح الجندي عينيه منتفضاً، شاهد ما جرؤ المحكوم على القيام به، ترك بندقيته تسقط على الفور، ثم وقف ناظراً إليه، مراقباً إياه، وهو يجالد ويتعثر في قيوده، محدثاً ضجيجاً. هتف الضابط بصوت مجلجل «أوقفه على قدميه!» ذلك أنه لاحظ أن المحكوم يجذب انتباه المستكشف كثيراً، وفي الحقيقة كان المستكشف منحنياً على «المسحاة» دون أن يحفل بها، مركزاً فحسب على ما يجري للمحكوم، صرخ الضابط مرة أخرى «كن حذرا معه!». جرى ملتفاً حول الآلة وأمسك بالمحكوم من أبطيه وبمساعدة الجندي أوقفه على قدميه اللتين ظلتا تنزلقان تحته.

قال المستكشف فيما يعود إليه: «أصبحت ألم الآن بكل شيء عن الآلة». قال الضابط، ممسكا بذراع المستكشف، ومشيراً إلى أعلى: «ألممت بها كلها عدا أهم الأشياء فيها، في «المصمم» توجد كافة العجلات المسننة التي تتحكم في حركات «المسحاة» وتنتظم هذه الآلة في عملها وفقاً للوشم الذي يقتضيه

الحكم، إنني لازلت أستخدم التخطيطات الإرشادية التي رسمها القائد السابق، ها هي ذي «نزع بعض الأوراق من الحافظة الجلدية. إستطرد «لكن معذرة، فليس بوسعي أن أدعك تمسك بها، إنها أثمن مقتنياتي، اجلس فحسب وسأمسك بها أمامك على هذا النحو، وعندئذ سيكون بمقدورك أن ترى كل شيء بصورة طيبة تماماً». نشر الصفحة الأولى، كان دور المستكشف أن يقول شيئاً يوحي بالتقدير، لكن كل ما استطاع أن يراه هو متاهة من الخطوط المتقاطعة والمتعارضة بعضها مع البعض الآخر، كانت تغطي الورقة بكثافة بالغة، بحيث تعذر تتبع المساحات البيضاء فيما بينها. قال الضابط: «اقرأها!»، قال المستكشف: «لا أستطيع». قال الضابط: «ومع ذلك فإنها واضحة بما فيه الكفاية». قال المستكشف مراوغاً «إنها محددة للغاية، لكني لا أستطيع فهمها»، قال الضابط ضاحكاً وهو يبعد الأوراق: «نعم إنها ليست خطوطاً لأطفال المدارس، بل ينبغي أن تدرس عن كثب وإني لعلى يقين من أنك ستفهمها في النهاية بدورك، بالطبع لا يمكن أن يكون المخطوط بسيطاً، فليس من المفروض أن تقتل الآلة رجلاً على نحو مباشر، وإنما بعد فترة، يصل متوسطها إلى اثنى عشرة ساعة، نقطة التحول غالباً ما تجيء بعد ست ساعات، لذا يتعين أن يكون هناك الكثير من التوهمات حول الحدث الرئيسي، عملية الوشم، لذا تجري على الجسم في طوق ضيق فحسب، أما باقي الجسم فيبقى للزخرفات، هل

تستطيع الآن أن تقدر العمل الذي تحققه «المسحاة» والآلة بأسرها؟ راقبها فحسب!» انطلق صاعداً السلم، أدار عجلة، هتف مطلاً إلى أسفل: «انظر! واصل النظر إلى جانب واحد!». بدأ كل شيء في العمل، لو أن العجلة لم تقرقع لبدت الآلة بديعة، هز الضابط قبضته تجاه الآلة، كما لو كان قد فوجئ بضجيج العجلة، ثم نشر ذراعيه، معتذراً للمستكشف، وهبط مسرعاً ليحدق في أداء الآلة من أسفل، كان هناك شيء ما لايدركه غيره لايزال في غير موضعه، تسلق السلم صاعداً من جديد، قبض على شيء بكلتا يديه في داخل «المصمم» ثم انزلق على أحد القبضان هابطاً بدلاً من استخدام السلم لكي يهبط بسرعة أكبر، صرخ بملء قوة رئتيه ليكون صوته مسموعاً في غمار هذه الضجة كلها في أذن المستكشف: «هل بوسعك تتبعها، شرعت المسحاة في الكتابة، وحينما تنتهي المسودة الأولى من الوشم على الظهر تبدأ طبقة القطن والصوف في التدحرج. وببطء تقلب الجسم لتتيح «للمسحاة» فراغا جيداً للكتابة، في الوقت نفسه فإن الجزء المسلوخ عنه الجلد والذي سبق وشمه يرقد على القطن والصوف، وهما معدان خصيصاً لامتصاص النزف، ومن ثم يجعلان كل شيء معداً لتعميق جديد للوشم، ثم تقوم هذه الأسنان عند حافة «المسحاة»، فيما الجسم ينقلب، بإبعاد القطن والصوف عن الجراح وإلقاء البقايا إلى الحفرة، ثم يتاح المزيد من العمل «للمسحاة»؛ من هنا فإن تواصل الكتابة

أعمق فأعمق طوال الساعات الإثنتي عشرة بأسرها. وطوال الساعات الست الأولى يظل المحكوم نابضاً بالحياة كذي قبل، على وجه التقريب، ويعاني من الألم فحسب، بعد ساعتين ينزع العكام اللبادي، ذلك أن المحكوم يكون قد فقد القدرة على الصراخ هنا، إلى هذا الحوض المسخن كهربائياً عند رأس «المرقد» ينصب بعض الأرز المطهو اللين، الذي يمكن للرجل، إذا شاء، أن يأخذ بقدر ما يستطيع لسانه أن يلعق، لم يحدث أن أهدر أحدهم هذه الفرصة،، ليس بوسعي أن أتذكر أحداً أضاعها، وتجربتي عريضة، في حوالي الساعة السادسة فحسب يفقد الرجل كل رغبة له في الأكل، عادة ما أنحني في هذه اللحظة وأراقب هذه الظاهرة، نادراً ما يبتلع الرجل لقمته الأخيرة، إنه يديرها فحسب في فمه ثم يبصقها إلى الحفرة، يتعين علي أن أنحني في هذه اللحظة ذاتها وإلا فإنه يبصقها في وجهي، ولكن أي هدوء ذلك الذي يغمره حوالي الساعة السادسة! إن الاستنارة تحل بأقل الناس لماحية، تبدأ حول العينين، من هناك تشع، تلك لحظة قد تغري المرء بأن يهبط معه تحت «المسحاة» ، ثم لا يحدث المزيد عقب ذلك، يبدأ الرجل فحسب في فهم الوشم، يزم شفتيه كما لو كان يصغي، لقد رأيت كم هو عسير أن يتبع المرء الوشم بعينيه لكن رجلنا يتتبعه بجراحه، من المؤكد أن تلك مهمة صعبة ؛ فهو بحاجة إلى ست ساعات لينجزها. في هذا الوقت تكون «المسحاة» قد اخترقته تماماً،

فتلقيه إلى الحفرة حيث يسقط في الدم والماء ومزيج القطن والصوف، عندئذ يكون الحكم قد نفذ فأقوم -أعني الجندي- وأنا بدفنه».

كان المستكشف قد مال بأذنيه ناحية الضابط وراح -وقد وضع يديه في جيوب سترته- يراقب الآلة وهي تعمل، راح المحكوم يراقبها بدوره- ولكن دونما فهم، انحنى للأمام قليلاً، وتركز انتباهه على الإبر المتحركة حينما قام الجندي بإيماءة من الضابط بتمزيق قميصه وسرواله بالطول من الخلف باستخدام سكين، بحيث سقطا إلى الأرض، حاول أن يمسك بملابسه المتهاوية ليغطي عريه، لكن الجندي رفعه في الهواء وجرده من بقاياها، أوقف الضابط الآلة، وفي غمار السكون المفاجئ تم إرقاد المحكوم تحت «المسحاة»، أطلق من الأغلال، وأحكم تثبيت الأطواق بدلاً منها. وفي اللحظة الأولى بدا ذلك بمثابة راحة على وجه التقريب للمحكوم. الآن تم تثبيت «المسحاة» على مسافة أقرب قليلاً، حيث إن الرجل كان نحيفاً، وحينما مسته أطراف الإبر امتدت رعشة بطول جلده. فيما كان الجندي مشغولاً بإحكام تطويق يده اليمنى، ألقى المحكوم بذراعه اليسرى عشوائياً، لكن تصادف أن كانت في اتجاه المستكشف. واصل الضابط اختلاس النظر إلى هذا الأخير، كما لو كان يسعى إلى أن يقرأ من ملامح وجهه الانطباع الذي تركه تنفيذ الحكم عنده، وهو التنفيذ الذي تم على الأقل شرحه بصورة خاطفة.

تحطم طوق الرسغ، ربما كان الجندي قد جذبه فأحكمه بأكثر مما ينبغي. اضطر الضابط للتدخل، فقد رفع الجندي الجزء المكسور ليريه إياه، لذا مضى الضابط نحوه، قال ووجهه لا يزال متحولاً باتجاه المستكشف: «تلك آلة بالغة التعقيد، وهناك أشياء تتحطم أو تتداعى هنا وهناك، لكن على المرء ألا يسمح لنفسه من خلال هذا بأن ينحرف بحكمه العام، وعلى أية حال فإن هذا الطوق يمكن جعله جيداً بسهولة، إذا استبدل بسلسلة، وبالطبع فإن رهافة الذبذبات المنسابة للذراع الأيمن سوف تتأثر قليلا».
وفيما كان يحكم تثبيت السلسلة أضاف قائلا:

«لقد خفضت المصادر المتاحة لصيانة الآلة في الوقت الراهن بشكل كبير للغاية. في عهد القائد السابق كان تحت تصرفي مبلغ من المال مخصص للإصلاحات من كافة الأنواع. أعترف بأنني كنت مسرفاً في انفاقه، أعني في الماضي، لا الآن على نحو ما يدعي القائد الجديد، الذي يبحث دائماً عن تعلة لانتقاد طريقتنا القديمة في إنجاز الأمور، وفي الوقت الراهن فإنه يشرف على الأموال المخصصة للآلة بنفسه. إذا طلبت طوقاً جديداً فإنهم يطالبون بالطوق القديم كدليل على صحة ما أطالب به، والطوق الجديد يحتاج إلى عشرة أيام لكي يظهر، ثم يتضح أنه من مادة هشة وليس جيداً. ولكن كيف يفترض أن أقوم بتشغيل الآلة دون طوق... ذلك أمر لا يكترث له أحد».

راح المستكشف يحدث نفسه: إنه لأمر دقيق دائما أن

يتدخل المرء بشكل حاسم في شئون الآخرين. لم يكن عضواً في مستعمرة العقاب، ولا مواطنا في الدولة التي تنتمي إليها، فلو أنه قام باستنكار تنفيذ هذا الحكم، أو حاول بالفعل إيقافه لكان بمقدورهم أن يقولوا له: «أنت غريب، عليك بالاهتمام بشئونك». ولن يكون بوسعه أن يرد على هذا، ما لم يضف بأنه مندهش من نفسه في هذا الصدد، فقد كان يرتحل بوصفه مراقباً لا غير، دون أن يعتزم تغيير أساليب الآخرين في تنفيذ العدالة، ومع ذلك فإنه يجد نفسه هنا تحت طائلة إغراء قوي بأن يقوم بذلك ؛ فقد كان ظلم هذا الإجراء ولا إنسانية التنفيذ أمرين لا يمكن إنكارهما. ما من أحد كان بوسعه أن يفترض أنه لديه اهتمام أناني بالأمر، كان المحكوم غريباً تماماً عنه، لم يكن من مواطنيه، كما أنه لم يكن يتعاطف معه على الإطلاق، وكان لدى المستكشف ذاته توصيات من دوائر عليا، قد تم استقباله هنا بقدر رفيع من المجاملة، وقد بدت حقيقة أنه دعي لشهود تنفيذ الحكم ذاتها وكأنها تشير إلى أن وجهات نظره ستكون محل ترحيب، وقد كان احتمال ذلك كبيراً، حيث إن القائد بدا كما لو أنه استمع الآن بوضوح بالغ ممن لا يناصرون هذا الإجراء، وراح يتبنى موقف العداء على وجه التقريب من الضابط.

في هذه اللحظة سمع المستكشف الضابط يصرخ في غضب، كان قد دفع لتوه الكعام اللبادي بمشقة كبيرة في فم المحكوم حينما أغمض الرجل في غمار تواصل لا يقاوم للدوار

عينيه وتقيأ. أبعده الضابط مسرعاً عن الكعام وحاول الإمساك برأسه فوق الحفرة، لكن الوقت كان قد فات، حيث تدفق القيء عبر أنحاء الآلة، صاح الضابط، وهو يهز القضبان النحاسية المواجهة له دون وعي: «هذا كله خطأ ذلك القائد: لقد فسدت الآلة بأسرها، فغدت مثل حظيرة خنزير». بيدين مرتعدتين أشار للمستكشف موضحاً ما حدث: «لو أنني لم أحاول لساعات في كل مرة جعل القائد يفهم أن السجين ينبغي أن يصوم يوماً كاملاً قبل تنفيذ الحكم، لكن صاحب المذهب الجديد المعتدل يفكر بطريقة أخرى، حيث تحشو نساؤه فم الرجل بالحلوى قبل أن يقاد إلى هنا. عاش طوال حياته يقتات السمك المتعفن والآن عليه أن يبتلع الحلوى! ولكن لم لا يحصلون لي على كعام لبادي جديد وهو ما كنت أستجديه طوال الشهور الثلاثة الماضية؟ كيف لا يشعر رجل بالغثيان حينما يلتقم في فمه كعاماً لبادياً التقمه وقرضه مئات الرجال في لحظات احتضارهم؟».

كان المحكوم قد وضع رأسه أرضاً وبدا على محياه السلام، كان الجندي منهمكاً في محاولة تنظيف الآلة بقميص المحكوم، تقدم الضابط نحو المستكشف الذي تراجع للخلف بحس داخلي مسبق غامض. لكن الضابط أمسكه بيده، جذبه منتحياً به، وقال: «أود أن أتبادل بضع كلمات قلائل معك بصورة حميمة، هل أستطيع ذلك؟». قال المستكشف مصغياً بعينين أرخيت

أهدابهما إلى الأرض: «بالطبع». قال الضابط: «إن هذا الإجراء وتلك الطريقة في التنفيذ اللذين تبدي الإعجاب بهما الآن، لم يعد لهما في الوقت الراهن أنصار في مستعمرتنا، إنني نصيرهما الوحيد، وفي الوقت نفسه النصير الوحيد لتقاليد القائد القديم، لم يعد بوسعي أن أراهن على المزيد من العمل بهذا الأسلوب، وصيانة هذه الآلة تستنفذ كل طاقتي. خلال حياة القائد القديم كانت المستعمرة تحفل بأنصاره، إنني لازلت أتمتع بمقدرته على الإقناع إلى حد ما، لكني لا أملك ذرة من سلطته، ومن هنا فقد تبدد الأنصار، لا يزال هناك العديد منهم، لكن أيا منهم لم يقر الآن بذلك، ولئن مضيت اليوم إلى المقهى، وهو يوم لتنفيذ الحكم، وأصغيت لما يقال لا ستمعت فحسب إلى ملاحظات متضاربة، هذه الملاحظات سيطرحها جميعاً أنصاره لكنهم في ظل القائد الحالي ومبادئه الراهنة لا نفع فيهم ولا غناء. الآن أسائلك: أبسبب هذا القائد والنسوة اللاتي يؤثرن فيه تتداعي هذه المعجزة العلمية،.. إنجاز العمر كله -أشار إلى الآلة- إلى هوة الإهمال؟ أينبغي على المرء أن يترك ذلك يحدث؟ حتى وإن كان قد جاء غريباً إلى جزيرتنا لأيام قائل؟ ومع ذلك، فليس هناك وقت يهدر، فثمة هجوم من نوع ما يوشك أن يقع على عملي كقاضٍ. فالمؤتمرات تعقد بالفعل في مكتب القائد، ويحال بيني وبين شهودها، بل إن حضورك هنا اليوم يبدو لي خطوة هامة، إنهم جبناء، ولسوف يستخدمونك كستار، أنت الغريب، كم كان مختلفاً تنفيذ الحكم في الأيام الخوالي! قبل

الاحتفال بيوم كامل كان الوادي يحتشد بالناس. يقبلون جميعاً للمشاهدة، في ساعة مبكرة من الصباح يقبل القائد ومعه سيداته، توقظ الأبواق المعسكر بكامله، كنت أقدم تقريراً بأن كل شيء على أهبة الاستعداد، فتقوم الصحبة المجتمعة بتنظيم نفسها حول الآلة. ما كان موظف عالي الرتبة ليجرؤ على الغياب. هذه الكومة من المقاعد الخيزرانية هي شاهد بائس باق من هذا العهد، كانت الآلة تلتمع بعد تنظيفها حديثاً. كنت أحصل على قطع غيار جديدة لكل عملية تنفيذ للحكم على وجه التقريب. وأمام مئات من المشاهدين، يقفون جميعاً على أطراف أصابعهم بطول القامات هناك، يرقد المحكوم تحت «المسحاة»، على يد القائد ذاته، وما يترك الآن لجندي عادي للقيام به كان في ذلك الوقت هو مهمتي، أي مهمة القاضي الرئيسية، وكان ذلك تشريفاً لي، عندئذ يبدأ تنفيذ الحكم! ما من ضجة عارضة كانت تفسد عمل الآلة. كثيرون لم يكونوا يكترثون بمراقبتها وإنما يرقدون بأعين مغمضة على الرمل، إنهم يعلمون جميعاً أن العدالة تأخذ الآن مجراها، وما كان المرء في غمار الصمت ليسمع إلا تنهدات المحكوم وقد خنقها الكعام اللبادي أو أوشك على خنقها. الآن لا تستطيع الآلة أن تنتزع من أحد تنهيدة أعلى مما يمكن للكعام خنقه، ولكم في تلك الايام الخوالي كانت الإبر الكاتبة تسقط دفقا حمضياً لم يعد يسمح لنا باستعماله اليوم، ثم تدق الساعة السادسة! كان من المستحيل الموافقة على كافة

الطلبات المقدمة للسماح بمراقبة ما يحدث في الساعة السادسة عن كثب. أصر القائد بحكمته على أن تكون الأفضلية للأطفال. كنت دائماً على مقربة بالطبع ؛ بسبب منصبي وما يخلعه عليّ من امتياز. كنت أمكث هناك مصطحباً طفلين، كيف كنا جميعا نمتص نظرة التحول المرتسم على وجه من يعاني العذاب! كيف كنا نمسح خدودنا فى وهج تلك العدالة التي تحققت أخيراً والتي سرعان ما تذبل! أي أوقات كانت تلك يا رفيقي!» كان من الواضح أن الضابط قد نسي هوية من يخاطب، كان قد عانق المستكشف، ووضع رأسه على كتفه. أحس المستكشف بحرج بالغ، فراح يحدق في نفاذ صبر، عبر رأس الضابط. أنهى الجندي مهمة التنظيف التي كان يقوم بها، وهو الآن يصب الأرز اللين من وعاء الحوض المخصص له. وبمجرد أن لاحظ المحكوم الذي بدا أنه قد استرد تماسكه كلية هذه الحركة حتى شرع في محاولة الوصول إلى الأرز بلسانه. واصل الجندي دفعه جيدا حيث إن الأرز اللين قد أعد لاستخدامه في مرحلة تالية بالتأكيد، غير أنه لم يكن من المناسب وبنفس الدرجة أن يقوم الجندي نفسه بغمس يديه القذرتين فى الحوض وراح يلتهم الأرز أمام وجه المحكوم المتطلع.

استجمع الضابط قواه سريعا... قال: «لم أرغب في مضايقتك. أعلم أنه من المستحيل جعل تلك الأيام الخوالي شيئاً قابلاً للتصديق الآن، وعلى أية حال فإن الآلة لا تزال تعمل، ولا

تزال فعالة في ذاتها. إنها فعالة بذاتها، حتى وإن كانت تنتصب وحيدة في الوادي، ولا تزال الجثة تسقط بحركة دافعة رقيقة على نحو لا يدرك، حتى وإن لم يعد هناك المئات من الناس يتكدسون حول المكان مثل الذباب، كما كان يحدث من قبل، كنا نضطر في تلك الأيام إلى وضع سور قوي حول الحفرة، وقد بني هذا السور منذ وقت طويل.

أراد المستكشف أن يشيح بوجهه بعيداً عن الضابط، وأن يتطلع حوله على نحو عشوائي، ظن الضابط أنه يرمق بنظرته اقفرار الوادي، لذا فقد أمسك بيديه، جعله يلتفت إليه ليقابل عينيه... سأله:: «هل تلاحظ العار في هذا الأمر».

لكن المستكشف لم يعلق جوابا. تركه الضابط وحده قليلاً، وقف جامداً تماماً، وقد باعد ما بين ساقيه، ووضع يديه على مؤخرته ، وحدق في الأرض. ابتسم مشجعاً المستكشف، وقال: «كنت قريباً منك للغاية أمس، حينما وجه القائد الدعوة لك، سمعته يوجهها، إنني أعرف القائد، وقد حدست في الحال ما يسعى إليه، فعلى الرغم من أن لديه من السلطة ما يكفي لاتخاذ إجراءات ضدي، فإنه لا يجرؤ على القيام بذلك، لكن من المؤكد أنه يعتزم استخدام حكمك ضدي... حكم رجل أجنبي له قدره، لقد حسب الأمر بعناية. ذلك هو اليوم الثاني لك على أرض الجزيرة، أنت لا تعرف القائد القديم وأساليبه،

تحكمك الأساليب الأوروبية في التفكير. ربما كنت تعترض من حيث المبدأ على عقوبة الاعدام بصورة عامة، ومثل أجهزة الموت الميكانيكية تلك بصفة خاصة. وإلى جوار ذلك فسوف تدرك أن تنفيذ حكم الإعدام لا يلقى تأييداً من الجمهور. فعل بائس، ينفذ بآلة أصبحت بالفعل عتيقة بالية الآن، أخذاً بكل ذلك في الاعتبار (على هذا النحو يفكر القائد) ألن يكون من المحتمل أنك لن توافق على أساليبي؟ وإذا كنت لا توافق عليها ألن تخفي الحقيقة (لازلت أتحدث من منظور القائد) حيث إنك من نوعية الرجال الذين يعتمدون على استنتاجاتهم المجربة؟ حقاً إنك شاهدت وتعلمت أن تقدر السمات الغريبة لشعوب كثيرة، ومن هنا فإنه لا يحتمل أن تتبنى موقفاً ضد اجراءاتنا على نحو ما كان يمكن أن تفعل في بلادك، لا يتعين حتى أن تمثل ما تعتقده حقاً طالما أنها يمكن أن تستخدم بشكل خاص لخدمة غرضه، لسوف يحاول استدراجك بأسئلة ماكرة، إني لعلى يقين من هذا، ستجلس سيداته حولك ويرهفن السمع. قد تقول شيئا من هذا القبيل: «لدينا في بلادنا طريقة أخرى لتنفيذ العدالة» أو «في بلادنا تتاح للسجين فرصة للدفاع عن نفسه قبل الحكم عليه» أو «إننا لم نستخدم التعذيب منذ القرون الوسطى»، كل هذه العبارات صحيحة بقدر ما تبدو طبيعية بالنسبة لك، مجرد ملاحظات لا تصدر حكماً على أساليبي، ولكن على أي نحو سيستجيب القائد لها؟

بوسعي أن أراه، قائدنا الطيب وهو يدفع بكرسيه على الفور ويندفع إلى الشرفة. بمقدوري أن أرى سيداته وهن يتدفقن في أعقابه. أستطيع أن أسمع صوته، ذلك الصوت الذي تصفه السيدات بأنه صوت الرعد، وإليك ما سيقوله: «إن محققاً غربياً شهيراً أرسل لدراسة الاجراءات العقابية في كافة دول العالم ذكر لتوه أن تقليدنا العتيق في تنفيذ العدالة هو تقليد لا إنساني، وصدور مثل هذا الحكم عن مثل هذه الشخصية يجعل من المستحيل بالنسبة لي الإبقاء على هذه الطرق أكثر من ذلك، ومن هنا واعتباراً من اليوم فأنني آمر بأن «...» وما إلى ذلك. وقد ترغب في القول بأنك لم تقل -على الإطلاق- شيئاً كهذا، وأنه لم يحدث أبداً أن وصفت أساليبي بأنها غير إنسانية، وأنه على العكس فتجربتك العميقة تحملك على الاعتقاد بأنها أكثر الأساليب إنسانية واتفاقاً مع الكرامة الإنسانية وأنك تعجب بالآلة إلى حد كبير، لكن الوقت سيكون قد تأخر، ولن تصل إلى الشرفة حيث ستكون مزدحمة بالسيدات، وقد تحاول جذب الانتباه إليك لكن يد إحدى السيدات ستطبق شفتيك وسينتهي أمري وأمر القائد القديم».

اضطر المستكشف إلى إخفاء ابتسامة أوشكت أن تلوح، إذن فهي سهلة للغاية تلك المهمة التي كان يشعر بأنها عسيرة للغاية. قال مراوغا: «إنك تبالغ في تقدير نفوذي، لقد قرأ القائد خطابات التوصية التي جلبتها معي، وهو أنني لست خبيراً في

الاجراءات العقابية، وإذا كان لي أن أبدي رأيا فسيكون ذلك بصفتي الخاصة، وهو رأي لا يزيد تأثيره عن رأي أي شخص عادي وأقل تأثيراً على أية حال من رأي القائد، الذي يتمتع فيما يسعني أن أدرك بسلطات واسعة في مستوطنة العقاب هذه وإذا كان موقفه من إجراءاتك قاطعاً في عدائه، على نحو ما تعتقد، فإنني أخشى أن نهاية التقليد الذي تتبعه وشيكة، حتى بدون أية مساعدة متواضعة من جانبي».

هل وضح الأمر للضابط أخيراً؟ لا... فهو لم يفهم بعد. هز رأسه في عناد، اختلس نظرة قصيرة إلى المحكوم والجندي اللذين كفا عن التهام الأرز معاً، اقترب من المستكشف، ودون أن ينظر إلى وجهه ثبت الضابط عينه على بقعة ما في سترته، وقال بصوت أكثر انخفاضا عن ذي قبل: «إنك لا تعرف القائد، وتشعر بنفسك –ولتغتفر لي هذا التعبير– وكأنك لا منتمٍ فيما يتعلق بنا وجميعاً، ومع ذلك، صدقني، فإن نفوذك لا يمكن التهوين من شأنه، لقد سررت ببساطة حينما سمعت أنك ستشهد تنفيذ الحكم بمفردك، رتب القائد الأمر ليوجه لطمة لي، ولكني سأحولها لصالحي، لقد سمعت إيضاحاتي، شاهدت الآلة، وأنت في طريقك الآن لتشهد التنفيذ، دون أن يضللك همس كذوب ونظرات مفعمة بالاحتقار، وهو ما كان يتعذر تجنبه لو أن جمعاً من الناس شاهد التنفيذ. لقد كونت دون شك حكمك الخاص، وإذا كانت لا تزال لديك بعض الشكوك

الصغيرة تراودك، إن مشاهدة الحكم ستحسمها، الآن أوجه إليك هذا الطلب، ساعدني ضد القائد!». لم يدعه المستكشف يواصل الحديث، صاح: «كيف يمكنني القيام بهذا؟ إنه مستحيل تماماً، لا أستطيع مساعدتك أو عرقلتك» قال الضابط «نعم، تستطيع». بخوف يقيني من شر مرتقب رأي المستكشف الضابط وقد ضم قبضتيه، كرر هذا بمزيد من الإصرار: «نعم، تستطيع، لديّ خطة من المحتم أنها ستنجح، أنت تعتقد أن نفوذك غير كاف، وأنا أعلم أنه كاف، ولكن حتى إذا سلمنا بأنك محق أليس من الضروري حفاظاً على هذا التقليد أن تجرب حتى ما قد يبدو غير كاف؟ أصغ إلى خطتي إذن، إن أول شيء ينبغي عليك القيام به أن تكون كتوماً، بقدر الإمكان، فيما يتعلق بحكمك على هذه الاجراءات، وما لم يوجه إليك سؤال مباشر فعليك ألا تقول شيئا على الإطلاق، وما ينبغي أن تقوله يتعين أن يكون مقتضباً وعاماً، دعهم يلاحظون أنك تؤثر ألا تناقش الأمر، وأنك قد ضقت ذرعاً به، وأنك لو تركت لنفسك العنان لاستخدمت أسلوباً عنيفاً، إنني لا أطالبك بطرح أية أكاذيب، على الإطلاق، ينبغي أن تطرح إجابات مقتضبة، مثل: «نعم لقد شاهدت تنفيذ الحكم» أو «نعم، لقد تم إيضاح الأمر لي» كذلك فحسب ولا مزيد، هناك من الأسباب ما يكفي لتبرير أي نفاذ صبر تبديه، وإن لم يكن بالقدر ذاته الذي سيحسه القائد، بالطبع سيخطئ في تفسير ما تقصده، وسيفسره على نحو ما

يرضيه، وذلك هو ما تعتمد عليه خطتي، سيعقد غداً في مكتب القائد مؤتمر كبير، يشهده كافة المسئولين الإداريين الكبار، يتولى رئاسته القائد، وبالطبع فإن القائد ينتمي إلى تلك النوعية من الناس التي يمكن أن تحول هذه المؤتمرات إلى محافل عامة، لقد شيد معرضاً يحفل دائما بالنظارة، وأنا مضطر لشهود هذه المؤتمرات، لكنها تجعلني أحس بالغثيان، الآن وأيا كان ما يحدث فمن المؤكد أنك ستدعى لشهود هذا المؤتمر، وإذا ما تصرفت اليوم على نحو ما اقترح فإن توجيه الدعوة إليك سيصبح أمراً عاجلاً، ولكن إذا لم توجه إليك الدعوة لسبب غامض فعليك أن تطلب توجيه الدعوة لك، وعندئذ فليس هناك شك في أنها ستوجه إليك، وهكذا فإنك ستجلس غداً في مقصرة القائد مع السيدات، سيواصل التحديق نحوك ليتأكد من أنك هناك، وبعد العديد من الأمور التافهة والمثيرة للسخرية المطروحة لمجرد التأثير في جمهور الحاضرين، وهي غالبا من عمال الميناء، لا شيء غير عمال الميناء! سيطرح نظامنا القضائي للمناقشة كذلك، فإذا لم يطرحه القائد أو إذا لم يطرحه بالسرعة الكافية فسآخذ على عاتقي أن يرد ذكره، سأنهض واقفاً وأقدم تقريري عن وقوع تنفيذ الحكم اليوم، باقتضاب بالغ، مجرد إشعار، ومثل هذا الإشعار ليس أمراً معتاداً، لكني سأقوم بتقديمه، سيشكرني القائد كالمعتاد بابتسامة ودودة، ثم لن يستطيع أن يكبح جماح نفسه، لسوف ينتهز الفرصة الممتازة المتاحة، سيقول لك على هذا النحو أو بكلمات مماثلة: «ذكرتم أن عملية تنفيذ لحكم إعدام قد

تمت وأود أن أضيف فحسب أن هذه العملية قد شاهدها المحقق الشهير الذي شرف –كما تعلمون جميعا– جزيرتنا على نحو استثنائي بزيارته لنا، ويساهم وجوده اليوم في جلسة اليوم من مؤتمرنا كذلك في أضفاء الأهمية على هذه المناسبة، ألا ينبغي علينا الان أن نطلب من المحقق الشهير أن يقدم لنا حكمه على طريقتنا التقليدية في تنفيد حكم الاعدام والإجراءات المؤدية إلى إصداره؟» بالطبع سيدوي تصفيق عال وموافقة عامة، وسأكون أكثر إصراراً من الجميع. ينحني القائد ويقول لك: «إذن فإنني باسم الجماعة الحاضرة هنا أطرح هذا السؤال عليك «الآن تدنو من مقدمة المقصورة، ضع يديك حيث يستطيع الجميع مشاهدتهما وإلا فإن السيدات سيمسكن بها ويعتصرن أصابعك، وأخيراً بوسعك أن تتحدث عالياً، لست أدري كيف سأتحمل توتر انتظار هذه اللحظة، لا تكبح جماح نفسك حين تتحدث، أعلن الحقيقة بصوت عال، إنحن على مقدمة المقصورة، أجل، حقاً، اصرخ بحكمك، لا تهتز في وجه القائد، ولكن لعلك لا تكترث للقيام بهذا، إنه لا يتفق مع شخصيتك، ربما كان الناس في بلادك يقومون بهذه الأمور على نحو مختلف، طيب، هذا مناسب كذلك، سيكون هذا فعالاً بالدرجة ذاتها، بل حتى لا تقف، قل كلمات قلائل فحسب، انطقها حتى همساً بحيث أن المسئولين الماثلين بأسفل المقصورة وحدهم يسمعونك، سيكون ذلك كافياً تماماً، ما من حاجة تدعوك إلى ذكر الافتقار للتأييد الجماهيري لحكم الإعدام، العجلة المقرقعة، الطوق المكسور،

الكعام اللبادى القذر، لا، سأحمل كل هذا على كاهلي، وصدقني، فلئن لم يجبره اتهامي على الخروج من قاعة المؤتمر فإنه سيرغمه على الركوع على ركبتيه ليدلي بإقرار: «أيها القائد القديم، إنني أنحني تواضعاً بين يديك» تلك هي خطتي، أتساعدني في تنفيذها؟ ولكنك بالطبع على استعداد لذلك، وما هو أكثر من ذلك، إنه يتحتم أن تكون على استعداد لذلك» وأمسك الضابط بكلتا يدي المستكشف، وراح يحدق فيه وقد ثقل تنفسه. كان قد صرخ عالياً بجملته الأخيرة بحيث إن الجندي والمحكوم فزعا، فوقفا منتبهين، لم يفقها كلمة واحدة، لكنهما كفا عن تناول الطعام، وتطلعا إلى المستكشف، وهما يضعان لقيماتهما السابقة التي ابتلعاها من قبل.

منذ البداية ذاتها يراود المستكشف شك حول طبيعة الرد الذي ينبغي أن يطرحه، فقد عرك طوال عمره الكثير من الأحداث، لم يخالجه الشك هنا، كان إنساناً شريفاً، في أعماقه، لا يعرف الخوف، ومع ذلك فقد تردد الآن أمام الجندي والمحكوم لوقت يكفي ليلتقط المرء نفساً واحداً، غير أنه أخيراً قال ما تعين عليه أن يقول: «لا». رمش الضابط بجفنيه مرات عديدة، لكنه لم يحول عينيه بعيداً، تساءل المستكشف: «أتود أن أوضح لك الأمر؟». أشار الضابط موافقاً، في صمت أخرس، عندئذ قال الضابط: «إنني لا أوافق على الإجراء الذي تتبعه، حتى قبل أن تمنحني ثقتك، وبالطبع فإنني لن أخون تلك الثقة بحال، كنت أتساءل بالفعل عما إذا لم يكن من واجبي أن أتدخل وعما إذا

كان تدخلي ستتاح له فرصة النجاح، أدركت إلى من ينبغي أن أتوجه، إلى القائد بالطبع، وقد جعلت أنت هذه الحقيقة أكثر وضوحاً، ولكن دون أن تدعم قراري، بل الأمر على العكس، فقد أثر في اقتناعك المفعم إخلاصاً، وإن كان لم يستطع التأثير في حكمي».

ظل الضابط صامتاً، التفت إلى الآلة، أمسك بأحد القضبان النحاسية، حدق في «المصمم»، كما لو كان يؤكد لنفسه أن كل شيء على ما يرام، بدا الجندي والمحكوم كما لو كانا قد وصلا إلى فهم من نوع ما للأمر، كان المحكوم يومئ بإشارات للجندي، رغم صعوبة تحركاته بسبب الأطواق المحكمة، كان الجندي منحنياً فوقه، همس المحكوم بشيء ما، أوما الجندي موافقا.

تبع المستكشف الضابط، قال: «إنك لا تعلم بعد ما أعتزم القيام به، لسوف أحدث القائد بما أعتقده بشأن إجراءات العدالة، هذا مؤكد، ولكن ليس في مؤتمر عام، وإنما فيما بيننا فحسب، كما أنني لن أمكث هنا وقتا يتيح لي شهود المؤتمر، لسوف أرحل في وقت مبكر غداً، أو على الأقل أنتقل إلى سفينتي».

لم يبد أن الضابط يصغي لحديثه. «هكذا فإنك لا تجد هذا الإجراء مقنعاً» قالها محدثاً نفسه، وابتسم، كما يبتسم كهل أمام عبث طفولي، ومع ذلك يواصل تأمله وراء حجاب ابتسامته.

«إذن فقد حان الوقت» ، قالها الضابط أخيرا، نظر فجأة إلى المستكشف بعينين براقتين، تحملان تحدياً ما، نداء من نوع ما للتعاون، تساءل المستكشف: «وقت ماذا» . لكنه لم يظفر برد.

«أنت حر» قالها الضابط للمحكوم باللغة الوطنية للجزيرة، لم يصدق الرجل في أول الأمر، قال الضابط: «نعم، لقد أطلق سراحك» . للمرة الأولى تيقظت ملامح الرجل، انطلقت إلى رحاب الحركة الحقيقية، أصحيح هذا؟ أم أنها لا تعدو أن تكون نزوة من نزوات الضابط سرعان ما تنقلب؟ هل استرحمه المستكشف الأجنبي ليعفو عنه؟ ما الأمر؟ كان بوسع المرء أن يطالع هذه الأسئلة المرسومة على وجهه، لكن ذلك لم يدم طويلاً، أياً ما كان الأمر، أراد أن يكون حراً حقاً، إذا كان ذلك بمقدروه، شرع في الحركة بقدر ما سمحت «المسحاة» له.

صاح الضابط: «ستحطم أطواقي، أرقد ساكنا! سرعان مانفك قيودك» . انطلق للقيام بذلك مشيرا إلى الجندي ليعاونه. ضحك المحكوم ضحكة خرساء لنفسه، راح يحول وجهه تارة يسرة ناحية الضابط وتارة يمنة تجاه الجندي، كما لم ينس المستكشف في توزيع نظراته.

«اسحبه بعيداً!» أصدر الضابط الأمر، كان ينبغي القيام بهذا ببعض الحذر بسبب «المسحاة» .

غير أنه منذ ذلك الوقت فصاعداً لم يبد الضابط اهتماماً

به، مضى صوب المستكشف، أخرج الحافظة الجلدية مرة أخرى، قلب الأوراق بها، عثر على الورقة التي كان ينشدها، عرضها على المستكشف، قال. «اقرأها!» قال الضابط: «لا أستطيع فهم هذه المخطوطات». تقدم الضابط، واقترب إلى حد كبير من المستكشف ليطالعا الورقة سوياً. ولكن حينما لم يجد ذلك فتيلاً قام الضابط بتحديد الخطوط بخنصره رافعاً الأصبع فوق الورقة، كما لو كان لا يجرؤ على تلطيخ الورقة بأصبعه، وذلك لكي يساعد المستكشف على تتبع ما هو مرسوم بالخطوط بتلك الطريقة. بذل المستكشف جهداً، قاصداً أن يبعث السرور في نفس الضابط في هذا الصدد على الأقل، لكنه عجز تماماً عن المتابعة. شرع الضابط الآن في استهجاء الحروف التي يرمز إليها المخطوط بالرسم حرفاً حرفاً، ثم قرأ الكلمات عالياً، قال «كن عادلاً، هذا هو المكتوب هناك، من المؤكد أنك تستطيع قراءتها الآن». انحنى المستكشف قريباً للغاية من الورقة، بحيث خشي الضابط من أنه قد يمسها، فجذبها مبتعداً بها، لم يعقب المستكشف غير أنه كان من الواضح أنه لا يستطيع تتبع الكلمات. مجدداً قال الضابط: «كن عادلا! هذا ما هو مدون هناك»، قال المستكشف: «ربما، إنني على استعداد لتصديقك». «طيب، إذن»، قالها الضابط وقد أحس بالرضا إلى حد ما على الأقل، وتسلق السلم حاملاً الورقة، بعناية بالغة ووضعها داخل «المصمم»، وبدأ وكأنه يغير وضع كافة العجلات المسننة، كان ذلك عملاً مثيراً للضيق، ولابد أنه اقتضى معالجة أمر عجلات

بالغة الضآلة، ففي بعض الأحيان كانت رأس الضابط تختفي كلية عن الناظر داخل «المصمم»، فعلى هذا النحو الدقيق تعين عليه أن يضبط الآلة.

دون انقطاع راح المستكشف يراقب العمل من أسفل، تصلب عنقه، آلمته عيناه من التحديق في الشمس عبر السماء، كان الجندي والمحكوم مشغولين الآن سوياً، تم التقاط قميص المحكوم وسرواله، اللذان كانا ملقيين في الحفرة بطرف حربة الجندي. كان القميص قذراً على نحو كريه، فقام صاحبه بغسله في دلو الماء، وحينما ارتدى القميص والسروال لم يتمالك والجندي من كبح قهقهتهما، فقد كانت الملابس بالطبع ممزقة من الخلف، ولربما شعر المحكوم بأن عليه أن يرفه عن الجندي، فراح يدور ويدور أمامه في ملابسه المهلهلة، فيما اقتعد الجندي الأرض وراح يضرب ركبتيه بيديه في مرح، أياً ما كان الأمر فقد سيطرا في التو على مرحهما توقيراً للسيدين.

حينما أنهى الضابط أخيراً مهمته بأعلى الآلة رمقها في كافة تفاصيلها مجدداً بابتسامة، لكنه فى هذه المرة أغلق غطاء «المصمم» الذي ظل مفتوحاً حتى الآن. هبط السلم، نظر إلى الحفرة ثم إلى المحكوم، ملاحظاً باغتباط أن الملابس قد تم التقاطها، مضى ليغسل يديه في مياه الدلو، أدرك بعد فوات الأوان أنه قذر على نحو مقزز، شعر بالتعاسة لعجزه عن غسل يديه، في النهاية دسهما في الرمل، لم يبعث هذا البديل السرور

في نفسه، لكنه اضطر لاحتماله، وقف في موضعه، وشرع في فك أزرار ردائه الرسمي. فيما هو يقوم بذلك سقط المنديلان النسائيان اللذان كان قد وضعهما تحت ياقته فتلقفهما. قال: «إليك منديليك»، وألقي بهما إلى المحكوم، وقال للمستكشف موضحاً: «إنهما هدية من السيدات».

على الرغم من العجلة الواضحة التي كان ينزع بها سترة زيه الرسمي أولاً ثم ملابسه بكاملها بعد ذلك فإنه كان يمس كل قطعة منها بعناية تفيض بالحب، بل مرر أصابعه مداعباً على النسيج الفضي الذي يوشي السترة، وهز إحدى الشرابات معيداً إياها إلى وضعها، كانت هذه العناية العاشقة غير متسقة بالتأكيد مع حقيقة أنه بمجرد خلعه لقطعة من ملابسه كان يطيح بها في الحال بضرب من الانتفاضة الرافضة إلى الحفرة، كان آخر شيء ترك له هو سيفه الصغير بحزامه، استله من غمده، حطمه، جمع الأجزاء المكسورة معاً والغمد والحزام، وأطاح بها إلى أسفل بعنف بالغ بحيث أنها قعقعت وهي في طريقها إلى الحفرة.

وقف الآن عارياً هناك، عض المستكشف شفتيه، إلتزم الصمت، كان يعرف تماماً ما الذي سيقع، لكنه لم يكن له الحق في الاعتراض على أي مما يقوم به الضابط، إذا كان الإجراء القضائي الذي كان الضابط يؤثره في طريقه حقاً إلى الانتهاء، ربما كنتيجة لتدخل الضابط وهو ما يشعر بأنه ملتزم به إذن فإن الضابط كان يقوم بالشيء الصحيح، ولو أن المستكشف

كان في موضعه لما تصرف على نحو آخر.

لم يفقه الجندي والمحكوم في البداية ما كان يجري، بل كانا ابتداء لا ينظران إلى ما يحدث، كان المحكوم مبتهجاً لحصوله على المنديلين، لكنه ما كان ليسمح له بأن يتمتع بهما لوقت طويل، حيث انتزعهما الجندي بحركة مفاجئة وغير منتظرة، وكان المحكوم الآن يحاول بدوره انتزاعهما من أسفل الحزام حيث دسهما الجندي، لكن هذا الأخير التزم الحذر، هكذا كانا يتصارعان على نحو يجمع بين الجد والهزل، حينما وقف الضابط عارياً تماماً فحسب جذب الأمر انتباههما. بدا المحكوم بصورة خاصة مذهولاً بفكرة أن تغيراً عظيماً في المقادير قد غدا وشيك الوقوع بالضابط. إن ما حدث له في طريقه الآن للوقوع مع الضابط، وربما حتى النهاية أيضاً، أصدر المستكشف الأجنبي فيما يبدو الأمر بذلك. هكذا فإن هذا هو الثأر، وعلى الرغم من أنه هو نفسه لم يعان حتى النهاية إلا أنه سيتم الانتقام له حتى النهاية. علت ابتسامة عريضة صامتة وجهه، تجمدت هناك طوال مابقي من وقت.

غير أن الضابط كان قد التفت إلى الآلة، بدا واضحاً من قبل بما فيه الكفاية أنه مستوعب لها جيداً، أما الآن فقد كان أمراً محيراً على وجه التقريب أن يرى المرء كيف يديرها فتذعن له وتنقاد، ما كان على يده إلا أن تمتد فحسب إلى «المسحاة» فتعلو وتهبط مرات عديدة إلى أن تصل للوضع المناسب لتلقي

جسمه، لمس حافة «المرقد» فحسب فشرع بالفعل في التذبذب، حل دور الكعام اللبادي في الاندفاع إلى فمه، كان بوسع المرء أن يرى أنه متردد في التقامه، لكنه انكمش بعيداً عنه للحظة واحدة، سرعان ما أذعن والتقمه، كان كل شيء جاهزاً، الأطواق وحدها ظلت مرتخية على الأرض، لكنه كان من الواضح أنها غير ضرورية، فلم تكن هناك حاجة لإحكام تقييد الضابط، ثم لاحظ المحكوم أن الأطواق لم تثبت، وفقاً لما يراه فإن الإعدام يكون ناقصاً مالم يحكم تثبيت الأطواق، أشار لاهفاً للجندي، هرعا معاً ليحكما تقييد الضابط. كان الأخير قد مد إحدى قدميه بالفعل ليدفع العتلة التي تحرك «المصمم»، رأى الرجلين مقبلين نحوه، رد قدمه إلى موضعها، استسلم للقيد، الآن لم يعد بمقدوره أن يبلغ العتلة، ما كان الجندي ولا المحكوم ليصلا إليها وقد عقد المستكشف عزمه ألا يحرك إصبعاً، كان ذلك ضرورياً، فبمجرد أن تم إحكام تثبيت الأطواق شرعت الآلة في العمل. تذبذب «المرقد»، لمعت الإبر فوق الجلد، راحت «المسحاة» تعلو وتهبط. كان المستكشف يحدق ذاهلاً لبرهة قبل أن يتذكر أن هناك عجلة في «المصمم»، كان ينبغي أن تقرقع، لكن كل شيء كان هادئاً، لم يكن بالوسع سماع أدنى صفير.

ولأن الآلة كانت تعمل بصمت بالغ فإنها لم تكن لتستقطب الانتباه، راح المستكشف يراقب الجندي والمحكوم، كان الأخير أكثرهما حركة. أثار كل شيء في الآلة اهتمامه،

كان ينحني حيناً، ويشب على أطراف أصابعه حيناً آخر. امتد إصبعهِ طول الوقت، مشيراً للجندي إلى تفاصيل عمل الآلة، أثار ذلك ضيق المستكشف. كان قد قرر أن يمكث حتى النهاية ساكناً، لكنه لم يحتمل مرأى الرجلين، قال:«عودا للدار!» كان الجندي على استعداد كافٍ لتنفيذ الأمر، لكن المحكوم تلقى الأمر كعقاب له. بيدين مضمومتين توسل ليسمح له بالبقاء، حينما هز المستكشف رأسه رافضاً، ولم تلن قناته، انحنى المحكوم مبتهلاً على ركبتيه، أدرك المستكشف أن لاجدوى من الاكتفاء بإصدار الأوامر، وكان على وشك المضي لدفع الرجلين بعيداً، في هذه اللحظة سمع ضجة في «المصمم» فوق رأسه، تطلع نحوه، هل تسبب تلك العجلة المسننة متاعب في نهاية الأمر؟ لكن الأمر كان مختلفاً تماماً، ارتفع غطاء «المصمم» ببطء، ثم انفتح على سعته، تجلت أسنان إحدى العجلات المسننة، أوغلت في الارتفاع، سرعان ما ظهرت العجلة بكاملها للعيان، بدا الأمر كما لو أن قوة هائلة من نوع ما راحت تعتصر «المصمم» بحيث لم يعد هناك فراغ يسع العجلة. تحركت العجلة المسننة إلى أعلى، حتى وصلت إلى حافة «المصمم» ذاتها، سقطت، تدحرجت على الرمل على حدها، ثم سقطت على وجهها، لكن عجلة أخرى كانت قد برزت عليه في أعقابها، تتبعها عجلات أخرى كثيرة، كبيرة، صغيرة، دقيقة على نحو لا يمكن تمييزه، تكرر الشيء نفسه بالنسبة لكافة العجلات. في كل لحظة كان المرء يتصور أن «المصمم» ينبغي أن يكون الآن خاويا،

لكن مجموعة أخرى من عجلات عديدة تكون قد بدت بالفعل للعيان، سقطت، تدحرجت على الرمل، استقرت متسطحة فوقها، جعلت هذه الظاهرة المحكوم ينسى كلية أمر المستكشف، فقد فتنته العجلات المسننة. كان طوال الوقت يحاول الإمساك بإحداها، ويهيب في الوقت نفسه بالجندي أن يساعده، لكنه يسحب يده فزعاً، إذ تقبل دائماً عجلة أخرى مندفعة تخيفه على الأقل في اندفاعتها الأولى.

شعر المستكشف من ناحية أخرى باضطراب عظيم، كان من الجلي أن الآلة تتداعى مزقاً، عملها الصامت لم يكن إلا وهماً، راوده شعور بأن عليه الآن أن يقف إلى جوار الضابط، حيث إن هذا الأخير لم يعد بمقدوره أن يعنى بنفسه، ولكنه فيما كانت العجلات المسننة المتداعية تستقطب انتباهه كاملاً نسي أن يراقب باقي الآلة، غير أنه وبعد أن تركت العجلة المسننة الأخيرة «المصمم» انحنى على «المسحاة»، فتلقى مفاجأة جديدة، لا تبعث على السرور، لم تكن «المسحاة» تكتب، وإنما كانت تطعن فحسب، لم يكن المرقد يقلب الجسم ويدور به، وإنما كان يحمله مرتجفاً في مواجهة الإبر، أراد المستكشف أن يفعل شيئاً إذا كان ذلك ممكناً لإيقاف الآلة بأسرها، فلم يكن ذلك تعذيباً بديعاً على نحو ما رغب الضابط، وإنما كان قتلاً صريحاً. مد ذراعيه، ولكن في تلك اللحظة ارتفعت «المسحاة» والجثمان ملتصق بها على نحو ما في الساعة الثانية عشرة فحسب، كان

الدم يتدفق في مئات من النهيرات غير مختلط. بالماء فنفاثات الماء لم تؤد عملها بدورها. الآن لم يتحقق العمل الأخير ولم ينزلق الجثمان بعيداً عن الإبر، وإنما ظل والدماء تتدفق منه معلقاً فوق الحفرة دون أن يسقط فيها. حاولت «المسحاة» الارتداد إلى وضعها القديم، ولكنها كما لو كانت قد لاحظت بنفسها أنها لم تتخلص من ثقلها، جمدت في النهاية حيث هي فوق الحفرة «اقبلا، وساعدا!» صرخ المستكشف بالآخرين، أمسك بالضابط بنفسه من قدمه، أراد أن يضغط دافعاً القدمين فيما الآخران يمسكان بالرأس من الطرف المقابل، وبذا يمكن تخليص الضابط ببطء من الإبر. لكن الآخرين لم يستطيعا أن يحزما رأيهما على الإقبال، بل مضى المحكوم بالفعل مبتعداً، اضطر المستكشف للمضي نحوهما وإجبارهما على الوقوف عند رأس الضابط، هنا ورغما عنه اضطر إلى النظر إلى وجه الجثة، كان على النحو ذاته الذي كان عليه في الحياة. لم تبد عليه إشارة ظاهرة للخلاص الموعود، وما عثر عليه الآخرون في الآلة لم يجده الضابط، كانت الشفتان مطبقتين على نحو صارم، والعينان مفتوحتين تحملان التعبير ذاته الذي كان لهما في الحياة، نظرتهما كانت هادئة، مفعمة بالاقتناع. خلال الجبين نفذ طرف مسمار حديدي كبير.

حينما وصل المستكشف وفي أعقابه الجندي والمحكوم إلى الدور الأولى للمستوطنة. أشار الجندي إلى إحداها وقال: «هو ذا المقهى».

في الطابق الأرضي للدار كان هناك فراغ عميق، منخفض، كهفي، جدرانه وسقفه يسودها الدخان، كان مفتوحاً على سعته باتجاه الطريق، ورغم أن هذا المقهى لم يكن يختلف كثيراً عن دور المستوطنة الأخرى التي كانت جميعها متداعية حتى بجوار قصر القائد المنيف، أعطى المستكشف انطباعاً بتقليد تاريخي من نوع ما، فأحس بقوة الأيام الخوالي، دنا منه وفي أعقابه رفيقاه حتى المناضد الخاوية التي وضعت في الطريق أمامه، استنشق الهواء البارد الثقيل المنعبث من داخله. قال الجندي: «العجوز مدفون هنا، رفض الكاهن دفنه في فناء الكنيسة. لبعض الوقت لم يدر أحد أين يمكن أن يدفن، لكنهم في النهاية دفنوه هنا، مؤكد أن الضابط لم يحدثك بهذا أبدا لأن ذلك هو أقصى ما كان يجعله يشعر بالطبع بالعار، بل حاول مرارا عديدة نبش قبر العجوز ليلاً، لكنه كان دائماً يطرد إلى البعيد».

تساءل المستكشف الذي وجد أن من المستحيل تصديق الجندي: «أين القبر؟». في الحال انطلق كلاهما، الجندي والمحكوم عدواً أمامه، وهما يشيران بأيديهما المرسلة على امتدادها في الاتجاه الذي يتعين أن يكون القبر فيه، قادا المستكشف حتى الجدار الخلفي، حيث كان الرواد يقتعدون مناضد قليلة. كانوا فيما يبدو من عمال الميناء، رجال أقوياء، بلحى قصيرة مكتملة تلتمع، لم يكن أحدهم يرتدي سترة، كانت قمصانهم بالية،

وكانوا مخلوقات فقيرة بائسة. حينما اقترب المستكشف نهض بعضهم واقفين، التصقوا بالحائط، راحو يحدقون فيه، تناثر الهمس حوله: «إنه غريب يريد أن يشاهد القبر». نحوا إحدى المناضد جانباً وتحتها كان هناك حقاً قبر حجري، كان بسيطاً، منخفضاً بما يجعل مائدة تغطيه، كان هناك نقش عليه بحروف بالغة الضآلة، واضطر المستكشف للانحناء كي يقرأه، كانت الكلمات على هذا النحو: «هنا يرقد القائد القديم، لقد حفر أنصاره -الذين ينبغي أن يظلوا حالياً مجهولي الأسماء- قبره، ووضعوا هذا الحجر، هناك نبوءة تقول بأنه بعد عدد معين من السنوات سينهض القائد من بين الأموات ويقود أنصاره من هذه الدار لاسترداد المستعمرة، ثقوا بهذا وانتظروا!». حينما قرأ المستكشف ذلك، ونهض واقفاً، رأى كافة الواقفين جانباً يبتسمون، كما لو كانوا بدورهم قد قرأوا النقش، وألفوه مثيراً للسخرية، وتوقعوا أن يوافقهم فيما ذهبوا إليه، تجاهل المستكشف هذا، وزع بضع قطع من النقود عليهم، انتظر إلى أن وضعت المائدة فوق القبر مجدداً، غادر المقهى، اتجه إلى المرفأ.

ألفى الجندي والمحكوم بعض معارفهما في المقهى، فعطلوهما، ولكن من المحتم أنهما تخلصا منهم سريعاً، فقد كان المستكشف في منتصف الدرج المؤدي إلى القوارب حينما أقبلا مندفعين في أعقابه، ربما أراد أن يرغماه في اللحظة الأخيرة على أن يصطحبهما معه، وفيما كان يساوم النوتي ليجدف به

على متن زورقه إلى سفينته اندفعا هابطين الدرج في صمت، فلم يكونا ليجرؤا على الهتاف، ولكن في الوقت الذي وصلا فيه إلى أسفل الدرج كان المستكشف بالفعل داخل القارب والنوتي يجدف مبتعداً عن الشاطئ، كان يمكن أن يقفزا إلى القارب، لكن المستكشف رفع حبلاً ثقيلاً مليئاً بالعقد من أرض القارب، وهددهما به، هكذا حال بينهما وبين محاولة القفز إلى القارب.

◆

بنات آوی وعرب

كنا قد ضربنا خيامنا في الواحة، وقد غفا رفاقي. مرَّ بي القوام الشامخ الأبيض لرجل عربي، كان يتفقد الإبل، ويمضي في طريقه إلى مرقده.

استلقيت على ظهري، فوق العشب، حاولت التماس الكرى، لكن النوم جفاني. في البعيد عوت بنت آوى، فاقتعدت الأرض ثانية، فجأة دنا مني، كأشد ما يكون الدنو، ما كان نائياً، فقد تدفقت بنات آوى حولي، وعيونهن تلمع بذلك البريق الأصفر الكئيب، وتعاود الاختفاء مجدداً، وأجسادهن اللدنة تتحرك، بتحفز، وعلى نحو منتظم، كما لو كان ذلك يحدث استجابة، لقرقعة سوط.

أقبلت إحدى بنات آوى من خلفي، مندفعة تحت ذراعي مباشرة، ضاغطة نفسها باتجاهي، كما لو كانت بحاجة إلى أن تلتمس الدفء مني، ثم وقفت أمامي، وراحت تحدثني وجهاً لوجه على التقريب.

– إنني كبرى بنات آوى في كل البقاع، ويسعدني أن ألقاك ها هنا، أخيراً، فقد كنت أوشك أن أفقد الأمل، إذ انتظرتك سنوات لا تنتهي، وانتظرتك أمي وأمها، وكل أمهاتنا، منذ الأم الأولى لبنات آوى كافة، هذا صحيح، صدقني!

قلت: ناسياً في غمار حديثي إذكاء جذوة كوم الخشب الجاثم قاب قوسين أو أدنى، والذي يمكن استخدامه في طرد بنات آوى بعيداً:

– أمر عجيب! يدهشني أشد الدهشة أن أسمع هذا، فالمصادفة المحضة هي التي ألقت بي إلى هنا من الشمال البعيد، كما أني أقوم بجولة قصيرة فحسب في هذه البلاد، فما الذي تردنه إذن يا بنات آوى؟!

أطبقت حلقة بنات أوى عليّ، كما لو كان قد أثار فيها الجرأة هذا التساؤل، الذي ربما كانت نغمة الود فيه قد تجاوزت ما ينبغي، رحن جميعا يلهثن، وقد فغرن أشداقهن.

أنشأت كبراهن تقول:

– إننا نعرف أنك جئت من الشمال، وهذا هو على وجه الدقة ما نعلق آمالنا عليه، فأنتم معشر الشماليين تتمتعون بذلك الفهم الذي لا نظير له في صفوف العرب، وأصدقك القول إنه ما من شرارة واحدة من الفهم يمكن أن تقدح من صلفهم

البارد. إنهم يذبحون الحيوانات، ليصنعوا طعاماً منها، ويزدرون الجيف.

قلت:

– لا ترفعي صوتك هكذا! فهناك عرب يرقدون غير بعيد عنا.

قالت بنت آوى:

– إنك غريب ها هنا حتماً، وإلا لعرفت أنه لم يحدث في تاريخ العالم قط أن خافت بنت آوى من عربي. لماذا ينبغي أن نخشاهم؟ أليس في نفينا بين ظهراني مثل تلك المخلوقات ما يكفي من سوء الطالع؟

قلت:

– ربما، ربما، فمثل هذه الأمور البعيدة إلى هذا الحد لا أجدني مؤهلاً للحكم عليها، ويبدو لي الأمر عراكاً بالغ القدم، وأحسب أنه أمر يجري مجرى الدم، وربما لن ينتهي إلا بسفكه.

– إنك أريب للغاية.

قالتها ابنة آوى العجوز، ورحن جميعهن يلهثن بمزيد من السرعة، فيتدفق الهواء من رئاتهن، على الرغم من أنهن ساكنات في مواضعهن. انبعثت رائحة نتنة من أشداقهن، اضطررت لكي

أحتملها إلى أن أصر على أسناني. مضت ابنة آوى تقول:

– إنك أريب للغاية، فما قلته تواً يتفق مع أعرافنا القديمة، لذا فإننا سنلغ في دمائهم، فينتهي النزاع.

قلت بصرامة تفوق ما كنت أقصده:

– آه، لسوف يدافعون عن أنفسهم، ويطلقون النار من بنادقهم عليكن، فتسقطن بالعشرات.

قالت ابنة آوى:

– ها أنت تسيء فهمنا، وتلك خصلة بشرية، يبدو أنها توجد حتى في أقصى الشمال، فنحن لا نقترح قتلهم: إذ ليس بمقدور ماء نهر النيل كله أن يطهرنا من ذلك، بل إن مجرد مرأى لحمهم الحي يجعلنا نولي الأدبار، ساعيات وراء هواء أنقى، إلى الصحراء، التي هي لهذا السبب عينه ملاذنا.

وخفضت بنات آوى الملتفات حولي جميعهن، بما في تلك كثيرات أقبلن لتوهن، أخطامهن بين قوائمهن الأمامية، ورحن يمسحنها ببراثنهن، كما لو كن يحاولن إخفاء شعور غلاب بالاشمئزاز، إلى الحد الذي دفعني إلى الرغبة في الوثوب فوق رؤوسهن والهرب بعيداً.

– ما الذي تقترحن القيام به إذن؟

قلتها متسائلاً، وأنا أحاول الوقوف، لكنني لم أستطع النهوض ؛ فقد أطبقت ابنتا آوى فتيتان أنيابهما على معطفي وقميصي.

أوضحت ابنة آوى العجوز الأمر، بجدية تامة، بقولها:

– إنهما وصيفتاك، خصصتا من أجلك، تكريماً لك.

صحت، متلفتا تارة نحو ابنة آوى العجوز، وتارة نحو بنتي آوى اليافعتين:

– لابد لهما من تركي وشأني!

قالت ابنة آوى العجوز:

– ستفعلان هذا بالطبع، بما أن تلك هي رغبتك، لكن ذلك سيستغرق بعض الوقت، ذلك أنهما أحكمتا إطباق أنيابهما، كما هي عادتنا، ويتعين عليهما أن ترفعا أشداقهما قليلا قليلا.

وفي غضون ذلك أصفع إلى ملتمسنا:

قلت:

– لم يجعلني تصرفكن أميل إلى هذا تماماً.

قالت، وقد لجأت إلى الكآبة الطبيعية في صوتها:

– لا تأخذ علينا افتقادنا للدماثة، فننحن مخلوقات بائسة، لا حول لنا إلا بأنيابنا وكل ما نريد إتيانه، سواء أكان شيئاً طيباً أم سيئاً، نقوم به مستخدمات أنيابنا.

تساءلت، دون أن تسكن ثائرتي كثيراً:

– طيب، ما الذي تردنه؟

صاحت، وقد راحت بنات آوى تعوين معاً، على نحو ناء، بدا الأمر معه كما لو كن يعزفن لحناً متسق الأنغام.

– سيدي، سيدي، إننا نريدك أن تنهي هذا العراك الذي يقسم العالم، فأنت بالضبط الرجل الذي تنبأ أسلافنا بأنه سيولد للقيام بهذه المهمة، ونحن لا نريد بعد اليوم أن يكون العرب مصدر ضيق لنا، نريد مجالاً لالتقاط الأنفاس، أفقا تم تطهيره منهم، لا مزيد من ثغاء الخراف التي يذبحها عربي، أن ينفق كل حيوان نفوقاً طبيعياً، ولا تدخل إلا بعد أن نستنزف الجثة ونلعق عظامها عقب أن نسلبها اللحم. حياة نظيفة فالنظافة هي كل ما نريد.

عندئذ غرقن جميعا في النواح والبكاء، مضت كبراهن قائلة:

– كيف تتحمل الحياة في مثل هذا العالم، أنت يا صاحب القلب النبيل والنفس المرهفة، قذارة بياضهم، وقذارة

سوادهم، وفظاعة لحاهم، ومرأى محاجر أعينهم يدفع المرء إلى الرغبة في البصق، وحينما يرفعون ذراعا تتثاءب ظلمة الجحيم في آباطهم ؛ ولذا يا سيدي العزيز بيديك القوتين جز أعناقهم بهذا المقص!

واستجابة لإيماءة من رأسها، أقبلت إحدى بنات آوى مسرعة، وهي تحمل مقص حياكة صغير، كساه صدأ قديم يتدلى من ناب في فكها الأعلى.

صاح القائد العربي لقافلتنا، الذي كان قد زحف تحت الريح نحونا، وراح الآن يفرقع بسوطه الهائل:

- ها هو المقص أخيراً، وقد حان وقت التوقف!

سارعت بنات آوى بالهرب، لكنهن تجمعن متقاربات على بعد مسافة محددة، وقد انضمت إحداهن إلى الأخرى، فتصلبن على نحو بدون معه كما لو كان قد ضمهن وهج مستنقعي متضائل، في طية واحدة صغيرة.

قال العربي، ضاحكاً، بقدر ما يسمح له تحفظ أبناء جلدته بالمرح:

- هكذا فقد دعيت لشهود هذه التسلية أيضا أيها السيد!

تساءلت:

- إذن فإننا على علم بما تسعى إليه هذه الحيوانات

قال:

- بالطبع فهو أمر معروف للكافة، وطالما بقي العرب على قيد الوجود فإن هذا المقص سيجوب الصحراء، وسيمضي معنا إلى آخر أيامنا. وقد عرض على كل أوروبي للقيام بالعمل العظيم، وكل أوروبي هو بالضبط الرجل الذي أختاره القدر لهن، إن أشد الآمال جنونا هي محط تعلقهن، هاته المخلوقات الحيوانية، وهن لسن الا حمقاوات، شديدات الحمق، ذلك هو سبب حبنا لهن، فهن كلابنا ويفضلهن خير كلابكم، الآن راقب هذا الأمر، لقد نفق بعير ليلة أمس، وقد أمرت به فأحضر إلى هنا.

أقبل أربعة رجال بجيفة ثقيلة، وألقوا بها أمامنا، فلم تكد تمس الأرض حتى عوت بنات آوى، وكما لو كن قد جذبن بحبال على نحو لا سبيل معه إلى المقاومة راحت كل منهن تتقدم باضطراب إلى الأمام، وزحفن على بطن البعير النافق. كن قد نسين العرب، نسين مقتهن لهم، وسحرهن الحضور الذي يجب ما عداه والنابع من الجيفة كريهة الرائحة. ارتمت إحداهن على عنق البعير، غرست أنيابها مباشرة في أحد عروقه. وشأن مضخة صغيرة حادة تدفع بتصميم يعادل اليأس نحو إخماد نار تتلظى، التوت كل عضلة في جسم ابنة آوى، وكدحت لإنجاز هذه المهمة. في لمح البصر كن قد اعتلين الجيفة جميعا، رحن يعملن أنيابهن فيها، وقد تحولن إلى جبل يعلوها.

أعمل قائد القافلة سوطه الباتر، على نحو متقاطع، فوق ظهورهن فرفعن رؤوسهن، وقد أخذ بهن الخدر من فرط النشوة، رأين العرب فوق رؤوسهن، أحسسن لسع السوط على أخطامهن، قفزن وتراجعن قليلاً، لكن دم البعير كان متراكماً بالفعل في بحيرات، وقد ارتفعت رائحته زاعقة، وبقرت الجيفة في مواضع عديدة، فلم يستطعن مقاومتها، وأطبقن عليها من جديد، ومرة أخرى رفع القائد ذراعه بالسوط، فأمسكت به، وحلت دون أن يهوي بالسوط.

قال:

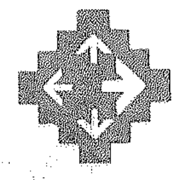
– إنك على حق أيها السيد، لسوف نتركهن عاكفات على عملهن، إضافة إلى هذا فقد حان وقت الرحيل. طيب. لقد رأيتهن، أنهن مخلوقات عجيبة. ألسن كذلك؟ ولشد ما يمقتننا!

◆

محتويات

◆

مطابع انترناشيونال برس ت : ٢٤٧٤٢٥٩



صدر في هذه السلسلة: